الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

وولاية غليزان

الشيخ الرّماصي وأعلام غليزان

«الاجتهاد والتصوف»

غليزان في : 01 – 02شعبان 1434 هـ

الموافــق: 10 – 11 جـوان 2013م

منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف – الجزائر

كلمة معالي وزير
الشؤون الدينية والأوقاف

د. بوعبد الله غلام الله

نرحب بالحاضرين،

ونشكر ولاية غليزان ممثلة في السيد الوالي والمجلس الشعبي الولائي.

إن الشيخ مصطفى الرماصي عالم طبقت شهرته الآفاق، وانطمست آثاره إلى الأعماق.

تبحر في علم الفقه المالكي وتشبه به إلى أقصى حد بحيث أصبح يرى في شراح مختصر خليل ابن اسحاق من النقائص والهفوات ما يتطلب التصويب، وبخاصة منها شرح الزرقاني والخرشي، مع شرح الدردير. وقد وصفهما الشيخ مصطفى الرماصي «بعدم تحقيقهما لاعتمادهما على كلام الأجهوري، وهو كثير الخطأ» وقد ذكر المرحوم الشيخ المهدي البوعبدلي كلام الرماصي هذا ليستدل به على «**أن كثيرا من فقهاء بلادنا كانوا مستقلي الرأي، فلم يكونوا عالة أو أبواقا يرددون ما وصلهم من فقهاء المشرق من دون نقد أو تمحيص**» ص43-44 قسم التراجم.

ومن قبله كان أبو القاسم الحفناوي قد تأسف عندما لم يعثر على ما يفي عالمنا حقه من المراجع، وقد سمى الخزانات التي تغلق على المراجع، سماها

مساجن المؤلفات حيث قال «**لهذا السبب لم أقف على تراجم علماء مشاهير كالرماصي والأخضري**».

ولا نعجب إذا لم يكن أكثر الحاضرين يعرفون قرية رماصة التي نشأ فيها فقيهنا وتعلم فيها وفضل النهوض بالتدريس فيها أي من المعهد الذي ورثه من أسرته العريقة، والذي كانت تدرس فيه علوم شتى مما كان شائعا في ذلك العصر، وقد ذكر الشيخ الرماصي أنه كان يدرس التوحيد والفقه واللغة والبلاغة والمنطق وعلوم القرآن كما جاء في بعض إجازاته لبعض تلامذته. وقد ظلت هذه العلوم تدرس في معاهد العلماء وفي الزوايا العلمية وقد ظلت تدرس إلى ما بعد 1954، أي بعد اندلاع ثورة التحرير ضد المستدمر الفرنسي بالإضافة إلى علم الفرائض، كما نجد ذلك مذكورا في قائمة العلوم التي كان يتولى تدريسها الشيخ الجيلالي عتبة بن عبد الحكم في معهده المشهور الذي أنشأه في العطاف ثم تحول به إلى مدينة الشلف التي كانت تسمى مدينة الأصنام.

ويشير أسلوب كتاباته إلى مرتبة راقية في التعبير الأدبي مما يدل على اهتمام علماء عصره بفن الكتابة شعرا أو نثرا وقد ذكر له الشيخ المهدي البوعبدلي قصيدة رثا بها شيخه عمر المشرفي تبين عن تمكنه من التصوير الأدبي الجميل. وكأنه وهو يبكي على ما بقي من رسم شيخه- يصف حالة رسمه هو حيث يقول:

فعاد أنــواء بعد أن كان غبطة ... وصار مقر الوحش فيه أو أبده
كأن لم يكن للناس مغنى ومألفا ... تلاعب فيه خوده وخرائده
كأن لم يكن للوافدين منارة ... ملاعبه معمورة ومصائده

ويكفي الشيخ الرماصي مكانة ومجدا أن الراشدية اشتهرت بعلوم الفقه ابتداء من حلوله بها ونشاطه في الافتاء والتوجيه والتدريس بها حتى تجاوز عدد العلماء فيها ثلاثمائة مؤلِف كما سيظهر ذلك من خلال المحاضرات التي تكرم بإعدادها الأساتذة الأفاضل.

وأني لأود أن يتمكن هذا الملتقى من فتح شهية الباحثين الشباب أو إنارة الطريق أمامهم لمواصلة الجهد واستخراج ما طمره الدهر الغاشم وما خربه الاستدمار الآثم.

ذلك أن غزارة العلم وعمق المستوى الثقافي للأمة الجزائرية وسمو طموح طلاب العلم في ذلك العهد كانت أهم العوامل التي مكنت الشعب الجزائري من التماسك والثبات طوال ليل الاستعمار الطويل ومنها استمدت الأجيال قوة المقاومة ورفض الواقع الاستعماري البغيض المهين.

وأني أتطلع إلى أن تتبنى معاهدنا ومراكزنا الثقافية خطة أو برنامجا تتولى فرق البحث بمقتضاه التنقيب والاستقصاء كل في ولايته لتخرج للعيان هذه الكنوز الموؤدة ظلما وعدوانا. فمن أحياها فكأنما أحيا كامل الأمة وكشف الغمة، وحررها من التبعية المهيمنة إما لقريب يتعاظم عليها فتهوى إليه منبهرة غافلة عما وهبها الله من كنوز تجهلها ولا تستطيع الافادة منها وإما التبعية لعدو ماكر يهينها بما يملي عليها من أباطيل وترهات تبعدها عن حقيقة قيمها وثروة أمجادها.

فعندما تطلِّع الأجيال على ما نسيت من تاريخها الثقافي ومجدها النضالي وتستعيد ذلك سوف تكون أقوى على مواجهة مشاق التنمية في الحاضر ويتضح أمامها الطريق لتضيف طارفا مبدعا إلى تليدها المجيد، فتكف

تدريجيا عن الارتشاف من الفضلات الوافدة المسيطرة عسفا على العقول الجامدة، لتنهل من العذب السلسبيل وتواصل تنميتها في الطريق الصحيح جيلا بعد جيل.

ويشرفني أن أعلن عن افتتاح الملتقى العلمي المنظم بالرعاية السامية لفخامة السيد عبد العزيز بوتفليقة رئيس الجمهورية والمخصص لعالم الراشدية الشيخ مصطفى الرماصي ولأعلام المظهر وعلماء غريس.

كلمة السيد والي
ولاية غليزان

أ. عبد القادر قاضي
الوزير الحالي للأشغال العمومية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

- السيد معالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف.
- معالي الوزراء.
- السيد / الممثل الشخصي لفخامة رئيس الجمهورية.
- السادة / الولاة.
- السيد/ رئيس مجلس القضاء غليزان والسيد النائب العام.
- السادة / رؤساء المجالس الشعبية الولائية.
- السادة / إطارات الجيش والأمن.
- السادة / المنتخبين الوطنيين والمحليين.
- أصحاب الفضيلة العلماء، ضيوف الشرف ،الأساتذة وشيوخ الزوايا.
- أئمتنا الأفاضل، المرشدات الفضليات.

- أبناءنا الطلبة.
- السادة / رجال الإعلام.
- السيدات والسادة الحضور.
- أيها الجمع الكريم.

إنّه لشرف عظيم وسعادة كبيرة أن أحظى بشرف الترحيب بكم بإسم السيد / **والي ولاية غليزان** المضيافة، وأعرب لسيادتكم عن أسمى عبارات التقدير والإمتنان على استجابتكم الكريمة، للمشاركة في هذا الملتقى الوطني الأول حول : «الشيخ الرماصي وأعلام غليزان «الإجتهاد والتصوف»، الذّي ينعقد تحت الرعاية السامية لفخامة رئيس الجمهورية، السيد / **عبد العزيز بوتفليقة**، في ظلّ الإحتفالات المخلدة لخمسينية الإستقلال، والجزائر تزهو في حلل الأمن وترفل في كنف الإستقرار.

وتنعم في ظل الوحدة المتماسكة، بفضل السياسة الرشيدة لفخامة رئيس الجمهورية السيد / **عبد العزيز بوتفليقة**، متّعه الله بالصّحة والعافية.

أيتها السيدات أيها السادة ،

إنّ علماءنا السّابقين واللاّحقين، أناروا سبيل الإسلام، وبدّدوا ظلام الغفلة والجهل، فاستنهضوا الهمم النائمة، وشحّذوا العزائم الملثومة، فاستطاعوا بفكرهم الثاقب وعلمهم الغزير، أن يجعلوا من الجزائر، مفخرة للعلم والجهاد، ولذلك فإنّ هذا الملتقى المبارك الذي نظمناه هذه السنة وطنياً، وسيكون في الطبعة الثانية بحول الله مغاربياً إلى أن يصبح بعد ذلك دولياً، على غرار الملتقى الدولي للمذهب المالكي، الذي كان لنا الشّرف في تأسيسه سنة 2005 م.

أيها الحضور الكرام ،

إنّ ملتقانا هذا نحسبه حلقة هامة تربط بين ماضينا المجيد وحاضرنا التّليد، لأنه يهدف في أبعاده إلى الغوص في مكنونات رصيدنا الثقافي المتميز، الذي تزخر به بلادنا، لنجعل منه نبراساً ينبني على ضوئه مستقبل أجيالنا لأنه يساعد على تجديد ما كاد يندثر من تراثنا، ويبرز جهد الأجداد فيما قدموه للأحفاد، في خدمة الإسلام والوطن، ذلك لأن الأمم العظيمة تستخدم التاريخ أداةً للتوجيه، وتتخذ من إنجازاته الكبرى، محفزات على السموّ والعطاء، ليكون الحاضر صورة من الماضي، تكون العلاقة بينهما مشدودة الوثاق، لا تنفصم عراها ولا تنفك أوصالها، لأن الأمم تصاب بالهوان عندما يعتلّ وجدانها، وتنفك خصائص ذهنيتها، وتفقد الثقة في نفسها، فيصيغ لها غيرها ذهنية وفق أنماط خارجية قد تكون وبالاً على دينها ووحدتها .

ولذلك فإن هذا الملتقى في نظرنا يكتسي أهمية بالغة لأنه يستجيب لمنطق الأولويات الملحّة، التي يمليها علينا واقعنا، فالتقدم الحاصل قديماً وحديثاً، إنما يكمن في بناء الذّات بناءً صحيحاً، لا يشوبه نقص ولا يعتريه هوان سيما وأن ظاهرة الخيرية للأسلاف إستولت على عقولنا ردحاً من الزمن، وكادت تشلّ حركة تفكيرنا .

وشاع بيننا بأن الجيل السابق خير من الجيل اللاحق، فهذه حقيقة لا مرية فيها بيد أنها لا ينبغي أن تكون عائقاً أمام نهمات عقولنا، وتدفعنا إلى التوقف عن إستشراف المستقبل لنلحق بالأولين، فيما قدّموه خدمة لدينهم وأمتهم، لأن التجدّد الثقافي والحضاري الذّي ننشده، لا يتحقق بالتنكّر

لموروثنا الثقافي، ولا بالغلو والتعصّب والتطرف، الذي بلغ ببعض الفئات المتعصّبة إلى الخطأ في الفهم والأخذ بالمنهج القاصر، فأسالوا بفتاويهم التكفيرية، دماءً زكية بريئة، وأشعلوا نارالفتنة، بين أبناء الأمة الواحدة، فقدموا بذلك خدمة مجانية لأعداء الإسلام، فأفرحوا الشيطان الذي إستمتع برؤيتها، وهي تلتهم حاضرالأمة ومستقبلها.

أيّها السادة الحضور، مشايخنا الأفاضل، علماءنا الأجلاّء،

إن حاجتنا اليوم إلى عقد مثل هذه الملتقيات العلمية، لنفض الغبار عن هذه الجواهرالمكنونة والكنوزالثمينة في بلادنا، وتوحيد رؤى المجتهدين في أمهات القضايا المصيرية، والمسائل العصرية وإيجاد صيغ جديدة، نستطيع بها مجابهة الهجمات المتتالية، خاصة في ظلّ التناقضات الحالية، التي تشهد تصارع الأفكار وتنازع المواقع، ونحن جزء من هذا العالم، الذي إزدادت فيه وتيرة التطور، وتجاسر على الفتوى أدعياء العلم الذين قلّ زادهم وشحّت معرفتهم، فأخضعوا نصوص القرآن لأهوائهم، فأقاموا لأنفسهم صرحاً من الوهم، أكسبهم جرأة على الدّين، فكفّروا خلقاً كثيرا، فظلّوا وأظلّوا، فتاه بعض الشباب وفقدوا ثقتهم في أنفسهم وفيمن يأخذون عنه أمور دينهم، وكما يقال الطبيعة تأبى الفراغ، وأنّ النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .

ولذلك فإن المتتبع لمخطوطات علمائنا يجدهم قد كتبوا في كلّ العلوم وألّفوا في جميع الفنون، وخدموا العلم بكل ما أوتوا من قوّة وعزم، فخلّفوا لنا تراثاً هائلاً في مجالات عدة.

رغم ما تعرضت له بلادنا من إستعمار غاشم، حاول بكل الوسائل والإمكانات طمس معالم هذا التراث، إلاّ أن الجزائر بقيت محافظةً على دينها وتراثها، فورث الأبناء تركة الأجداد .

وهانحن اليوم بصدد إلقاء الضوء على كثير من علماء هذه المنطقة، الذين خدموا الإسلام بتفانٍ وإخلاص، لنأكّد لغيرنا على الثّراء العلمي، الذي تتميّز به بلادنا .

و إنّنا لسنا في حاجة إلى إستيراد الفتاوى والتوجيهات من غيرنا، ونحن على يقين بأن الأساتذة الكرام، الذين تجهّموا مشقّة السفر للمشاركة في هذا الملتقى المبارك، سيسلّطون الضوء على كثير من الجوانب التي تخصّ موضوعه، وسيكشفون عن كثير من الدّرر والجواهرالمغمورة، من خلال المحاضرات القيّمة، التي ستلقى طيلة أشغال ملتقاكم هذا .

وفي الأخير، إنّي أجدد لكم التّرحاب في ولايتنا العامرة والمضيافة، ونضرب لكم موعداً في السنة المقبلة إن شاء الله في هذا المكان، لعقد ملتقى مغاربي تختارون عنوانه، أتمنى لكم إقامة طيبة بيننا.

**** وفقكم الله وسدد خطاكم ****

****المجد والخلود لشهدائنا الأبرار****

****تحيا الجزائر****

ملاحظة

قرأها نيابة عنه، السيد/ مديرالشؤون الدينية والأوقاف لولاية غليزان.

أعلام من قلعة بني راشد

أ. احمد لقدي
المعهد الوطني للتكوين المتخصص للأسلاك الخاصة
بإدارة الشؤون الدينية والأوقاف بن داود-غليزان

حول قبيلة هوارة :

هوارة قبيلة كبرى ذات تاريخ عريق قيل إنه يمتد إلى نحو 3000 عام، وهى تضم عشائر وقبائل كثيرة تنتشر في كل دول الشرق الأوسط وبعض دول جنوب أوربا وأفريقيا، وبالتالي تختلف جنسياتها ولهجاتها ولكنها تعود جميعها لأصل واحد ويربط بينها عادات وتقاليد مشتركة. وينتشر أبناؤها وعشائرها في كافة أرجاء المعمورة وهي من القبائل القليلة التي احتفظت باسمها عبر الزمان بفضل اعتزاز أبنائها بقبيلتهم ومتانة الروابط بينهم.

وأما شعوب هذا الجيل- أي البربر- وبطونهم فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان: وهما برنس ومادغيس، ويلقب مادغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه: البُتر، ويقال لشعوب برنس: البرانس.

وأما إلى من يرجع نسبهم من الأمم الماضية فقد اختلف النسّابون في ذلك اختلافا كثيرا...والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره-كما يقول

ابن خلدون- في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح ... وأن اسم أبيهم مازيغ.

قال ابن خلدون في تاريخه: «وهوارة هؤلاء من بطون البرانس باتفاق من نسابة العرب والبربر ولد هوارة بن أوريغ ابن برنس..

وفي أصل تسميتهم باسم هوارة ذكر ابن خلدون بعض الروايات ثم ردها؛ ومن تلك الروايات قوله: «قالوا إنما سميت هوارة؛ لأن المسور بن السكاسك-وهو جدّهم- لما جال البلاد ووقع في المغرب قال: لقد تهوّرنا هكذا عند بعض نسابة البربر، وعندي، والله أعلم، أن هذا الخبر مصنوع وأن أثر الصنعة بادٍ عليه ..

وأما بطون هوارة فكثير وأكثرهم من بني أوريغ، وكان لأوريغ أربعة من الولد: هوار وهو أكبرهم ومغر وقلدن ومندر، ولكل واحد منهم بطون كثيرة وكلهم ينسبون إلى هوار؛ لشهرته وكبر سنه..

وكانت مواطن الجمهور من هوارة هؤلاء ومن دخل في نسبهم من إخوانهم البرانس لأول الفتح بنواحي طرابلس وما يليها من برقة، كما ذكره المسعودي والبكري

هذا، وتعد قبيلة هوارة الأكثر انتشارا بشمال أفريقيا ومصر والشام، ويتميز أبناؤها بالفروسية والمهارة الحربية، وتصدرهم الجيوش وتوليهم مناصب القيادة فيها.

وأجمع المؤرخون على أنه يرجع لها الفضل في الفتح الإسلامى للأندلس وصقلية كما أنها أسست عدة دول بشمال إفريقيا وحكمت الأندلس وصقلية 200 عام .

وقد شكلت في وقت ما أحد أهم الألوية الثلاثة للجيش الفاطمي، الذي فتح مصر وأسس القاهرة الفاطمية والجامع الأزهر وغير ذلك من المآثر والأمجاد.[1]

هوارة الجزائر :

يقول ابن خلدون: «ومن قبائل هوارة هؤلاء بالمغرب أمم كثيرة في مواطن من أعمال تعرف بهم...وقد صاروا عبيدا للمغارم في كل ناحية وذهب ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات بسبب الكثرة، وصاروا إلى الافتراق في الأودية بسبب القلة.

ومن أشهرهم بالمغرب الأوسط أهل الجبل المطل على البطحاء-منطقة المطمر بولاية غليزان- وهو مشهور باسم هوارة.

ومن المعروف أن السكان الأصليين للشمال الشرقي الجزائري والشمال الغربي التونسي هم أمازيغ من قبيلة هوارة قبل وفود الهجرات البشرية الأخرى من فينيقيين ويهود وعرب وأندلسيين. وقد عبر سكان المنطقة الهواريين عن حريتهم عند مساندتهم لماسينيسا وحفيده يوغرطة في حروب الاستقلال عن قرطاج، أولاً مع ماسينيسا، وعن روما ثانيا تحت قيادة يوغرطة.

حول بني راشد :

ومن قبائل هوارة ببلاد المغرب عامة أمم كثيرة تفرقوا وسكنوا الأودية، ومنهم مغراوة أحد بطونها التي ينتمي إليها راشد بن محمد وإليه تنسب القلعة، فيقال: قلعة بني راشد.

---

(1) من بحث على شبكة الإنترنت.

وهذا راشد بن محمد أعطاه الله اثني عشر ولدا، ثم كثر نسلهم وامتدت فروعهم وظهرت نجابتهم في الحروب؛ فامتلأت صدور أعدائهم منهم رعبا وخاف الناس من بأسهم شرقا وغربا.وعندها مال إليهم بنو عبد الواد ودخلوا معهم في الحلف على قتال القبائل المناوئة.

وقد تمكن بنو راشد من الزحف من جبلهم المعروف بجبل راشد في العصر الأول واليوم يعرف بجبل «العمور» إلى بسائط مديونة وبني وَرْنيد، فاستوطنوا الجبل المطل على تلمسان، وهو الذي به اليوم قلعة بني راشد.[1]

تأسيس قلعة بني راشد :

لقد اختلف المؤرخون في تاريخ تأسيس القلعة: فمنهم من قال إن القلعة كانت موجودة قبل الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا، ويستدلون في ذلك على بعض الآثار؛ ومنهم من قال إن الأتراك هم من أسس القلعة بعد دخولهم الجزائر.[2]

وقد ذكر العلامة ابن خلدون في «تاريخه» أن مؤسسها هو إبراهيم بن عمران الراشدي، وذلك أن بني راشد عرفوا عدة انتصارات على القبائل المحاربة لهم وتوسعوا في عدة نواحي؛ ففكروا-والحال هذه-في بناء مدينة تكون حصنا لهم ولذخائرهم فوقع نظرهم على الجبل المسمى البربر. وكان بناؤها في القرن السادس الهجري حوالي 1155م، وقد اختطها لهم محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن عمران الراشدي.[3]

---

(1) تاريخ قلعة بني راشد، مذكرة تخرج، من إعداد مجموعة من طلبة معهد بن داود-غليزان، 2004، ص6

(2) نفسه. ص7-8

(3) تاريخ ابن خلدون، ط1 1992 دار الكتب العلمية-بيروت، 6/ 732

وعرفت القلعة تطورا كبيرا في جميع الميادين مما أكسبها الزعامة لدى القبائل المجاورة لها. وبامتداد نفوذها حتى سهل غريس-تابع لولاية معسكر- خربت البطحاء وهاجر من فيها إلى القلعة من قبائل: فليتة، وبني غدو، وسجرارة، وهوارة، غيرها كثير....

وشجع الإسحاقي-مؤسس القلعة- بقاء السكان بفكرة إقامة سوق يكون يوم السبت نكاية في اليهود الذين يحرم في شرعتهم الاتجار بالسبت، وكانوا أصحاب تجارة كبيرة مما حدا بهم إلى الهجرة خارج القلعة لبوار سلعهم، ومذ ذلك الوقت انتهت إقامة اليهود بالقلعة أبدا.[1]

أعلام من قلعة بني راشد :

لاشك أن قلعة بني راشد قد عرفت تطورا كبيرا من الناحية الثقافية، وهذا لا يستغرب في ظل تعدد دور التعليم القرآني بها مما دفع بكثير من طلبة العلم الحج إليها للتعلم والحفظ ومجالسة أهل العلم والصلاح.

وفي هذه المداخلة حاولت أن أترجم-جهد الاستطاعة-لبعض الصلحاء والعلماء والمجاهدين الذين عرفوا بانتسابهم للقلعة، وذلك إما مولداً وإما وفاةً وإما نشأةً وإما تدريساً.

ولم أُحطْ بكل هؤلاء قطعا فهذا صعب المنال، وذلك لقلة المراجع مع كثرة العلماء والصلحاء الذين اندثرت أسماؤهم باندثار كثير من المخطوطات التي لم تصلنا.

غير أنني أزعم أني فتحت باب التفتيش عن هؤلاء الأساطين من العلماء والصلحاء والمجاهدين الذين ذاع صيتهم في الآفاق وبهم استنارت أرجاء

(1) تاريخ قلعة بني راشد، ص8

القلعة ؛ فما على الباحثين سوى التنقيب عن هؤلاء، هنا وهناك، من أجل إبراز حقيقة قلعة بني راشد العلمية، هذه القلعة التي كانت تستهوي كل من أراد الحصول على علوم الظاهر والباطن من الطلبة وغيرهم.

وهذا أوان ذكر بعض أعلام قلعة بني راشد وأولهم أحد صلحاء القرن السادس الهجري.

الشيخ أبو عمران بن موسى المشدالي :

ولي صالح اشتهر بطبيب هوارة نسبة إلى قلعة هوارة التي أصبحت تعرف فيما بعد بقلعة بني راشد . وهو من صلحاء القرن السادس هجري. كان معاصرا للولي الصالح سيدي عبد القادر الجيلاني وهو المعروف بقرية تليوانت–تابعة للقلعة– بسيدي بوعمران.

وقد أشار إليه سيدي أبو عبد الله المغوفل في نظمه الشهير المسمى «الفلك الكواكبي والسلم الراقي إلى المراتب»حيث ترجم لسيدي أبي عمران المذكور بقوله:

كأبي عمران موسى المشدالي ... الموصوف بالفضل والكمال

حاز كثيرا من العلم الظاهر ... ومثل ذاك في السر المستتر

وكم من مغيث استغاثه ... به وقد عجلته الإغاثه

وبطبيب هوّارة يلقب ... وإلى الجانب الرفيع ينسب

أفاض الله علينا من نوره ... وسقانا خير السُّقيا من بحره

وذكره أيضا ابن سحنون الراشدي في كتابه:«الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني» الذي قال فيه: «وتليوانت مدشر سيدي بوعمران الشريف معاصر شيخ أهل الحضرة سيدي عبد القادر الجيلالي ـ نفعنا الله بهما ـ ..». ثم ذكر له بعض الكرامات التي تروى عنه.

وضريحه موجود بقرية تليوانت التابعة لبلدية عين الرحمة التي تقع في الناحية الجنوبية الغربية لولاية غليزان.[1]

الشيخ محمد بن عمر الهواري :

محمد بن عمر الهواري، المولود سنة 751هـ بمدينة قلعة هوارة. ولي صالح وعالم وفقيه وصوفي شهير عرفت به مدينة وهران التي سكن فيها. انتقل إلى منطقة «كلميتو» (السور) الموجودة قرب عين تادلس (ولاية مستغانم). وتعرف هناك على ولي صالح فلازمه حتى أخذ عنه الطريقة. ثم تنقل في عدة مناطق من البلاد ومنها الصحراء. درس ببجاية على أحمد بن إدريس وعبد الرحمن الوغليسي. ثم واصل دراسته بفاس على العلامة العبدوسي والشيخ القباب وقد أتم بها المدونة للإمام مالك بن أنس.

سافر إلى مصر وبعد ذلك أدى فريضة الحج حيث مكث عدة سنوات في مكة والمدينة وسورية. ولما عاد إلى الجزائر أسس زاويته الشهيرة بمدينة وهران.

---

(1) أعلام من منطقة غليزان، محمد مفلاح، دار هومة 2006 ص72؛ الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، ابن سحنون الراشدي، ت: المهدي بوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ص436.

من تآليفه المعروفة كتاب: «السهو في الطهارة والصلاة» وهو نظم بشعر ملحون إلى جانب تآليف أخرى ومنها: «التسهيل» و«التبيان» و«تبصرة السائل».

ومن تلاميذه المشاهير الشيخ إبراهيم التازي دفين القلعة.

توفي الشيخ الهواري سنة 843 هـ- 1439م ودفن بزاويته بوهران.[1]

الشيخ إبراهيم التازي :

هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن علي اللنتي- نسبة إلى لنت وهي قبيلة بربرية- من مواليد مدينة تازة بالمغرب الأقصى.يقول الدكتور يحي بوعزيز: «ولم تتحدث المصادر التي ترجمت له على تاريخ ميلاده... والغالب أنه كان في أواخر القرن الثامن الهجري.».

ومن تازة انتقل إلى مدينة تلمسان وتتلمذ على الشيخ محمد بن مرزوق الحفيد الذي أجازه ثم انتقل إلى وهران وتعرف على الشيخ محمد بن عمر الهواري ووثق صلاته به ومنها رحل إلى تونس وتتلمذ على الشيخ أبي القاسم عبد العزيز العبدوسي. ثم شد الرحال من هناك إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.

وفي مكة المكرمة أخذ على الشيخ القاضي تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي علم الحديث والرقائق، وأجازه عام830هـ - 1427م وعندما انتقل إلى المدينة المنورة أخذ على جماعة من العلماء بينهم الإمام أبو الفتح ابن أبي بكر القرشي في نفس العام والذي تلاه .

(1) أعلام من منطقة غليزان، ص 128 .

ومن المشرق عاد الشيخ التازي إلى مدينة تلمسان بعد أن أدى فريضة الحج واستقر بها بعض الوقت وأخذ على جماعة من علمائها أمثال الحافظ التنسي والإمام السنوسي وعلي التالوتي. ثم تصدى للتدريس وتتلمذ عليه الشيخ أحمد زروق الذي أجازه عام 832هـ- 1429م.

ومن تلمسان انتقل إلى وهران واستقر بها إلى جانب شيخه محمد بن عمر الهواري ولازمه طيلة حياته واتخذ لنفسه زاوية خاصة بأمر منه ونشط في التعليم والوعظ والإرشاد وتلقين الأذكار.وعندما توفي شيخه الهواري عام 843هـ- 1439م خلفه في مشيخته ونشاطه العلمي والتربوي.

ومن آثاره شعر غزير في أغراض شتى خاصة الزهد والتصوف وذم الدنيا أشار إليه ابن مريم في كتابه البستان وشرح بعضا من تلك القصائد كـ«المرادية» وغيرها.

توفي الشيخ إبراهيم التازي عام 866هـ- 1462م ودفن قرب ضريح شيخه الهواري لمدة خمسين عاما وعندما احتل الإسبان مدينة وهران واتخذوا قبره شبه مخمرة استنكر ذلك تلامذته ونقلوه سرا إلى قلعة هوارة التي تعرف اليوم بقلعة بني راشد. وقبره بها معروف مشهور.[1]

سليمان بن عيسى القلعي :

هو الشيخ الولي العلامة العلم سليمان بن عيسى المعروف بنسبته إلى قلعة بني راشد. ذكره ابن مريم حينما ترجم للشيخ محمد بن عمر الهواري وكشف لنا عن بعض كرامات الشيخ الهواري والتي منها ما حدث به

(1) أعلام الفكر والثقافة، يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي1995، 2/ 218 وما بعدها.

الشيخ سليمان بن عيسى القلعي وهو بحذاء داره بقلعة هوارة قال: «كتبت للشيخ سيدي محمد الهواري كتابا فيه نحو السبعين سطرا أشكو إليه فيه بأمور وأسأله عن أمور...» ويسرد الحادثة مبينا كرامة الشيخ الهواري رحم الله الجميع.[1]

عيسى بن سلامة البسكري :

قال الدكتور أبو القاسم سعد الله في «تاريخه»: «وقد ألف عيسى بن سلامة البسكري الذي كان اهتمامه بالتصوف بالدرجة الأولى عملا في التاريخ تناول فيه فتح إفريقية من قبل المسلمين...وقد رتبه على ثلاثة أبواب: الأول فيمن دخل إفريقية من الصحابة والتابعين والثاني فيمن دخلها من الأمراء والثالث في رجال من الأولياء والعلماء..» كما كتب سنة 860 هـ كتابا في فضائل القرآن من الوجهة الصوفية وسماه: «اللوامع والأسرار في منافع القرآن والأخبار».

وذكر ابن مريم التلمساني أن عيسى بن سلامة البسكري تتلمذ على الثعالبي وابن مرزوق الحفيد وغيرهما من علماء القرن التاسع..

أما مولده فلم تذكر المصادر متى ولد وأين توفي ولا حتى المراحل الهامة التي عاشها غير أنه يذكر كثيرا من علماء تونس في كتابه فلعل أن يكون من حياته فصل قضاه بتلك الديار كما يذكر هو أنه سافر ودرس في الغرب الجزائري وبالضبط حينما يصرح أنه قصد قلعة هوارة فربما كان ذلك للتعلم فقد كانت القلعة حينذاك قبلة الطلبة في القرآن والعلوم الشرعية

(1) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ابن مريم، ت: ابن أبي شنب 1908، ص229.

واللغوية وبهذا الصدد يقول في كتابه «اللوامع والأسرار» : «ورأيت رجلا كان ضريرا لا يبصر شيئا فاكتحل بمرارة الغراب فصار بصيرا.حدثني بذلك الثقة والحاضرون صدقوه وكان ذلك بقلعة هوارة حرسها الله»[1].

الشيخ أحمد بن يوسف الملياني :

هو الشيخ الولي الصالح العارف العالم أبو العباس أحمـد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن يوسف وينتهي نسبه إلى إدريس الأصغر الراشدي نسبة إلى قلعة بني راشد. ونسبة الملياني جاءته من إقامته آخر عمره بمدينة مليانة.

ولد حوالي سنة 840 هـ – 1437م وقيل سنة 836 هـ في دامود أحد قصور توات ومنه جاءت نسبته الدامودي. أخذ العلم في بداية أمره في مساجد «رأس الماء»ـ حيث انتقل صغيرا من مسقط رأسه «دامود» كما أخذ عن علماء تلمسان ووهران ثم انتقل إلى بجاية أين تتلمذ للشيخ أحمد زروق وأخذ عنه عهد الطريقة الشاذلية وسلك على يديه.

رحل إلى أقطار شتى ثم عاد إلى بلاده ينشر العلم والطريقة معا فأسس زاويته بـ «رأس الماء» بوادي الشلف درس بها مختلف العلوم الشرعية.

مارس الشيخ الشؤون العامة وشارك في الحياة السياسية المضطربة في عصره لكن بصفته مصلحا يحاول الدفاع عن الدين والوطن والشعب فعارض الحكم الزياني معارضة شديدة وذلك بسبب تحالفهم مع الأسبان وبسبب معارضته هذه حكم عليه السلطان عبد الله الثاني (910 ـ 923هـ) بالإعدام وأمر بأن يحرق حيا ويبدو أنه خفف إلى وضعه تحت الإقامة

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي 1998، 1/ 77 1/ 106–107، البستان، ص227.

الجبرية إذ أننا نجده سجينا في أحد القصور الملكية بتلمسان في عهد أبي حمو الثالث (923 ـ 934هـ) اتصل بعد ذلك بالأتراك وساعدهم على مقاومة الأسبان. وتذكر بعض المصادر أنه التقى مع عروج واتفق معه على مقاومة الحملات الاسبانية على السواحل الجزائرية.

توفي الشيخ بالقرب من مدينة مليانة في سنة 931هـ– 1524م ودفنه ابنه محمد بن مرزوقة في مدينة مليانة وبنى له باي وهـران «محمد الكبير» ضريحا ومسجدا في القرن الثاني عشر الهجري.

من آثــاره: «حكـم في التصوف»: عبارة عن حكمه التي سجلها بعضهم عنه.والمخطوط موجود بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1066 ضمن مجموع من الصفحة 258 إلى 265.

و«رسالة في أحكام الخرقة الشريفة» عبارة عن أقوال وحكم ورسائل الشيخ المليانى جمعها أحد تلامذته جمع فيه رسائله إلى أهل فجيج فاس تافيلالت وحتى بلاد الهند... وغيرها.مخطوط في 45 ورقة ضمن مجموع بمكتبة الأسرة العثمانية بطولقة.

و«رسالة في الرقص والتصفيق والذكر في الأسواق» تضمنت عدة مسائل في التوحيد والعقيدة والتصوف. والمخطوط موجود بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2792 د وهناك نسخة أخرى بمكتبة الشيخ بنعزوز القاسمي. و«الرمـوز والإشارات» مخطوط بالمكتبة القاسمية بالهامل.

و«مختصر لكتاب في التصوف» مخطوط بالخزانة العامة بالرباط في 40 صفحة رقم 1141.

و«المنهج الحنيف في معنى الاسم اللطيف» وهو عبارة عن رسالة تقع في 14 صفحة يبدو أن موضوعها هو تفسير وشرح اسم اللطيف من أسماء الله الحسنى والرسالة موجودة بمكتبة الشيخ بنعزوز القاسمي الحسني ضمن مجموع.[1]

الشيخ امحمد الشريف الزهّار :

هو محمد بن أحمد الشريف الزهّار. الولي العلم الذي قيل فيه إنه كان موحدا غارقا في بحر التوحيد يتخبّط بين جناحيه. ظل يتعبّد بمغارة فوق مسراتة (بلدية القلعة) وهذا قبل دخول الأتراك مدينة القلعة أنذر أهل المنطقة بالاحتلال الإسباني للمدينة وحدث ذلك الاحتلال سنة 1543م.

ترجم له الحفناوي فقال عنه إنّه: «وليّ كبير وقطب شهير له كرامات معروفة وزيارات مألوفة وكان ممن ارتوى من بحر سيّدي أحمد بن يوسف. توفّي سنة 1541م وقبره موجود بالمسجد المعروف باسمه بحي القصبة بالجزائر العاصمة.[2]

الشيخ محمد المعروف بالقلعي :

هو الفقيه العالم الولي الصالح من أكابر تلاميذ الشيخ الإمام العارف بالله تعالى محمد بن يوسف السنوسي. كان فقيها عالما سنيا موحدا متصوفا كثير التمسك بالسلف الصالح في كتم أسراره وحفظ أعواره... الجامع

(1) موقع مركز القاسمي للدراسات والأبحاث الصوفية، رسالة التحقيق ومنهج الهدى إلى الطريق للشيخ أحمد بن يوسف الراشدي المليانى، بقلم: الدكتورعبد المنعم القاسمي- الثلاثاء - 29 سبتمبر- 2009م.

(2) أعلام من منطقة غليزان، ص 35.

بين المنقول والمعقول والشريعة والحقيقة.. صاحب التحقيقات البديعة والاختراعات الأنيقة والأبحاث الغريبة والفوائد الغزيرة..

له أسئلة تزيد على الخمسين مسألة تسمى بـ»القلعية» أنشأها وهو بقلعة بني راشد وقد انتفع الناس بها كثيرا، بعث بها إلى فاس فأجاب عنها أحمد بن يحي الونشريسي. [1].

الشيخ محمد الصبّاغ القلعي :

هو محمد بن محمد بن أحمد بن علي الصباغ القلعي. ولد سنة(923 هـ- 1518 م). تولى وظيفة القضاء بمدينة القلعة.ويعد سيدي محمد الصباغ القلعي من كبار أعلام المنطقة. وتذكر المصادر التاريخية أن هذا العالم الجليل الذي ولد بمدينة القلعة كان رضيعا في الفترة التي انهزم فيها الأتراك أمام الاحتلال الإسباني. ففي المعركة التي سقطت فيها القلعة على أيدي الإسبان وجيش معاونهم أبي حمو الثالث قتل ابن معزّة-بتشديد الزاي- والد الصباغ القلعي الذي كان من أتباع سيدي أحمد بن يوسف زمن مرافقيه الأوفياء والمدافعين عنه بالشعر. وكان محمد الصباغ من المهتمين بعلوم الباطن بالإضافة إلى علوم الظاهر وقد دفعه اهتمامه الكبير بالتصوف إلى تأليف كتاب عنوانه: «بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار».ويعتبر الكتاب المذكور مصدرا مهما للتعريف بحياة سيدي أحمد بن يوسف الراشدي.

(1) أعلام من منطقة غليزان، ص 35.

وألف كتابا آخر عنوانه: «شفاء الغليل والفؤاد في شرح النظم الشهير بالمراد». وهو عبارة عن شرح لقصيدة سيدي إبراهيم التازي ومطلعها:

مرادي من المولى وغاية آمالي ... دوام الرضى والعفو عن سوء أحوالي

كما ألف أيضا في النحو سماه : «الدرر الصبّاغية» شرح فيه الأجرومية وكتب شرحا في أسماء الله الحسنى وشرحا آخر في الأذكار.

ويذكر بهذا الصدد أنه بعد مقتل إسحاق وصديقه اسكندر في أواخر 1518م إلى جانب حصار مدينة القلعة الذي دام ستة أشهر أصبحت القلعة تحت حماية أبي حمو الثالث ولكن خير الدين الذي خلف أخاه عروج المقتول سنة 1518م استرجع القلعة سنة 1540م وأصبحت المدينة منذ ذلك التاريخ من أهم مدن الدولة الجزائرية في العهد العثماني.وفي هذه الأجواء المتوترة التي عرفتها المنطقة عاش هذا العالم المتصوف الذي قال عنه أبو القاسم سعد الله: «ومن الغريب أن يجمع هذا الشيخ بين حياة التصوف وبين القضاء الذي يقتضي علما واسعا بالفقه والأحكام وقضايا الناس».[1]

الباي مصطفى بوشلاغم :

هو مصطفى بن يوسف بن محمد بن إسحاق المسراتي المعروف بالباي مصطفى بوشلاغم أول بايات وهران تولى منصب باي على مازونة وتلمسان في سنة 1098 هـ- 1690م. وجده محمد بن إسحاق هو الذي بنى قصبة القلعة. وكانت للمسارتية رياسة وعزة كاملة بمسراته والقلعة وانقطعت بموت جدهم المذكور.

(1) نفسه، ص 67.

قام مصطفى بوشلاغم بدور هام في تجنيد سكان الإيالة الغربية للجزائر ضد الغزاة الإسبان. وكان كرسي حكمه بمدينة مازونة ونقله إلى مدينة قلعة بني راشد ثم نقله من جديد إلى مدينة معسكر حتى تم الفتح الأول لمدينة وهران في سنة1708م. وبعد هذا الانتصار على الغزاة الإسبان نقل كرسي حكمه إلى مدينة وهران واستقر بها إلى أن هجم عليه الإسبان واحتلوها سنة 1732م. ولجأ إلى مدينة مستغانم لمواصلة المقاومة وظل بها حتى توفي سنة 1146هـ. دفن بالقبة التي بناها بنفسه وكتب عليها اسمه وتاريخ بنائها (وهو شعبان 1126هـ) .[1]

الشيخ محمد بن الخروبي :

الشيخ محمد بن الخروبي من أسرة توارثت وظيفة القضاء في عهد الأتراك وفي فترة الأمير عبد القادر تولّى القضاء بوهران في عهد الباي بن عثمان محمد الكبير [1800-1804م] وكان من المؤنسين له ونعته المزاري بقوله: «كان من جملة ندمائه حقا وأظرفهم خَلقا وخُلقا الفقيه اللبيب الكعب الأريب الآخذ من كل علم وافر نصيب الحائز للآداب بالكمال المرعي السيّد محمد بن الجيلاني الخروبي القلعي».

وقال عنه مسلم بن عبد القادر صاحب كتاب «أنيس الغريب والمسافر»:

ونـديـم لأبـي محمد عثمان مصدَّر في كل شـيء فقيه
عـفـيـف ذو نـجـابـة مهاب ظريف ذو رئاسة وجيـه

(1) طلوع سعد السعود، المزاري، يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي 1990، 1/ 105 1/ 298؛ أعلام من منطقة غليزان، ص16.

ومن الذين توظفوا لدى الأمير عبد القادر: الشيخ محمد الجيلاني الخروبي الذي تولى خطة القضاء وهاجر معه إلى الشام وتوفي هناك. والمكي الخروبي الذي عين عضوا في مجلس الشورى العالي الأميري. ومحمد الخروبي القلعي المذكور.[1] .

الشيخ سيدي دحمان :

ولي صالح من نسل سيدي عبد الرحمن الثعالبي كما يؤكد ذلك أحفاده القاطنون بالقلعة. استقر بالقلعة وظل يدرس بجامع السفوح حتى وفاته. عرف بشدة تمسكه بكتاب الله إقراء وتحفيظا وقد تخرج عليه طلبة كثر ختموا كتاب الله واستظهروه. وبقي على ذلك حتى وافاه أجل الله وضريحه موجود بالقلعة بحي السفوح. [2]

بوزيان القلعي :

هو بوزيان سحنون بن الحبيب بن إبراهيم بن سحنون بن البشير بن القاضي. ولد سنة 1838 م بمنطقة القلعة. وكان بوزيان القلعي من الثائرين على الحكم الاستعماري المستبد بدأت مواجهته البطولية للاحتلال الفرنسي برفض دفع الضريبة لقائد القلعة الذي صفعه بوحشية وهي إهانة لم ينسها بوزيان القلعي الذي كان رد فعله عنيفا وانتقامه شديدا فاستولى على سلاح القايد وأهانه شر إهانة وذلك بتجريده من اللباس أمام سكان القلعة ثم لجأ إلى جبال بني شقران ومناطق غليزان الوعرة التي وجد فيها الرحمة المفقودة في ظل الحكم الاستعماري الغاشم .

---

(1) أعلام من منطقة غليزان، ص86.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، 1/ 34.

كتب عنه أبو القاسم سعد الله فقال :كان بوزيان من بقايا المقاومة التي لم تخمد نارها منذ عهد الأمير . وأشار أيضا إلى سبب ثورة هذا البطل فقال: وقيل: إن بوزيان كان من الساخطين على تغيير البنية الاجتماعية التي جاء بها قانون 1863 م والذي قصد من ورائه انتزاع الأراضي من أهلها ومنحها للمعمرين «الكولون». فكان بوزيان القلعي يهاجم المزارع التي أقامها الفرنسيون على أنقاض الأراضي المغتصبة من أصحابها .

لا شك أن قانون 1863م أثار غضب كل الجزائريين الذين لم يرضوا بالاحتلال الفرنسي منذ دخوله أرض الوطن لذلك تواصلت المقاومات الشعبية على الاستبداد الكولونيالي .

وذكر الباحث الجيلالي صاري أن بوزيان القلعي شارك في ثورة 1864 م المندلعة في منطقة غليزان وتم القبض عليه وسجن بمركز بوخنيفيس (سيدي بلعباس) ثم هرب من السجن ولجأ إلى جبال المنطقة. وقد وجه الحاكم العام في يوم 30 ديسمبر 1874م مراسلة إلى وزير الحرب يشتكي فيها من مجموعة من الجزائريين يقودهم بوزيان القلعي كانت تثير الاضطرابات بمقاطعة وهران .

قاوم بوزيان القلعي مدة13 سنة –أي من1863 م إلى 1876م –،وظل يهاجم خلالها المعمرين وأعوان فرنسا من قياد وأعوان ومخبرين .وفي سنة 1876 م تم إبلاغ عساكر فرنسا عن بوزيان القلعي الجريح الذي كان في حالة ضعف شديد وألقي عليه القبض ثم حكم عليه بالإعدام الذي نفذ فيه بمدينة المحمدية (ولاية معسكر) في يوم26 جويلية 1876 م.وكان عمره وقتذاك39 سنة.[1]

(1) نفسه ص45.

دور أبي عبد الله المغوفل في بعث الفكر الروحي في ربوع حوض الشلف

د. حاج علي عبد القادر
جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم

إن الموروث الثقافي هو تلك الحصيلة العلمية الضخمة لسنوات غابرة لأعلام معروفين ومجهولين. ويمكننا القول أن هذه الحصيلة هي مآثر الوطن وكنوزه ومقومات الأمة، وذاكرتها التي يجب أن تُصان من النّسيان والإهمال، وذلك بربطها بالأجيال ووضع تواصل لها للسلف، أي تعريف السلف للخلف. وهذا الأمر يخدم حياتنا الحاضرة، لأنها امتداد لما انتهى إليه الأسلاف. أي حلقة وهمزة وصل بين الماضي والحاضر.

فالاهتمام بالموروث الثقافي لمنطقة من المناطق أو لبلد من البلدان أو لأمة من الأمم هو بعث روحها من جديد وإحياء مقوماتها، ورجوعنا إلى الماضي والاستلهام منه لا يعني أننا نحاول الهروب من مواجهة الحاضر، كما لا يعني كذلك الهروب من ثقافة الحاضر إلى ثقافة الماضي، بل هو وضع جسر للتواصل بين الماضي والحاضر لأنه لا يمكن أن يكون حاضر من دون ماضي. وإن إعادة بعث التراث بوجوهه المختلفة من مخطوطات ونصوص أدبية أو علمية كل ذلك من شأنه أن يبين لنا معالم طريقنا التاريخية، بل والأكثر من ذلك يساعدنا على تفعيلها وتجسيدها في حياتنا الحاضرة، هذا الحاضر الذي يدعو إلى التقدم ومسايرة ركب الحضارة. يدعو كذلك إلى الحفاظ على الموروث الثقافي الذي هو امتداد له.

لقد عرف هذا الرصيد الثقافي تطورات وتغيرات ترك فيها كل جيل بصماته متأثرًا بمحيطه ومقتضيات عصره. فعلينا إحياء هذا الموروث الثقافي الضخم بكل أشكاله حتى نستفيد من تجارب الماضي وذلك باستعمالها في إبداعاتنا الحاضرة وحياتنا المُعاشة لإيجاد وعي جديد، وهذا يتطلب دفعًا جديدًا لعجلة الثقافة.

فإذا كنا نحسّ بالقصور في مسايرة الأمم في خضم هذا التدافع الثقافي فهذا راجع إلى تقصيرنا وعدم اهتمامنا بالموروث الثقافي الذي خلّفه الأجداد حيث يمكننا بعثه في أي وقت أو كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

وبما أن حركة إحياء التراث في بلادنا تسير ببطء شديد في كل المجالات فإن هذا الملتقى المبارك لهو بادرة خير ومؤشر إيجابي في دفع مسيرة إحياء التراث وبعثه من جديد ونفض الغبار عنه. حتى لا يبقى حبيس الخزائن والزوايا، ويخرج إلى النور ليستفيد منه الباحثون والدارسون، أي يتحول إلى حالة تثقيف عام. وما الموروث الثقافي إلا تلك الصورة التي تعرفنا بصانعيها وأحوالهم، حيث يمكننا دمج هذا التراث في حاضرنا وذلك بعد عملية تمحيصه وتدقيقه لنصل في نهاية المطاف إلى الربط بين الأصالة والمعاصرة.

من هنا كان لزاما عليّا أن أساهم في دفع عجلة إحياء التراث الجزائري وذلك بالتطرق إلى دراسة مؤلّف لشخصية من شخصيات منطقة حوض الشلف ألا وهو الولي الصالح أبو عبد الله المغوفل (بوعبد الله)، في أرجوزته المعنونة بـ :«الفلك الكواكب والسلّم الراقي إلى المراتب» حيث سأتطرق إلى دراسة وصفية لهذه القصيدة مُبديًا أهم ما حوته من

قيم تاريخية وفنية، وارتأيت أولا أن أتعرض إلى تعريف موجز لهذه الشخصية، صاحب القصيدة أبوعبد الله المغوفل، ثم أتطرق للدراسة الوصفية.

تعريف أبي عبد الله المغوفل :

كنيته ونسبه:

هو أبو عبد الله بن محمد الملقب بالمغوفل الذي يرجع نسبه إلى عبد السلام بن مشيش هذا الأخير ينحدر من ذرية سيدنا الحسن بن علي وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر نسبه كاملا صاحب كتاب «أعلام من منطقة غليزان» إذ قال: «فهو محمد المغوفل أبو عبد الله بن محمد فتحا بن واضح بن عثمان بن الحاج عيسى بن محمد الملقب فكرون بن أبي القاسم بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الواحد بن محمد بن عبد السلام بن مشيش بن سالم الملقب أبو القاسم بن مزوار بن علي بن أحمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الكبير بن الحسن بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

شيوخه :

لقد أخذ الشيخ أبو عبد الله عن علماء فطاحل نذكر منهم: «أحمد حمادوش وعلي الجوثي الذي كان يجيد الحديث والتفسير والمنطق والأدب»[2]

(1) معجم أعلام من منطقة غليزان محمد مفلاح- طبعة- دار هومة – ص – 68-

(2) المصدر نفسه – ص68-

وقد أشار إليهما في قصيدته وأطرى عليهما بالثناء والمدح قائلا:[1]

وأحـمـدوش لـقب الأحمر وكان فاضلا تـقيا زاهـر

أزهـد الدنيا راغبا في الآخره وخـرج من زمـرة الجبابرة

ويذكر علي الجوثي فيقول:

نـزل فيها كثيرون كالغيـث شيخ شيوخنا علي الجوثي

نجم السعود حلّ بالـمنازل ونوره مسـتمر لا يؤفـل[2]

رحلاتـه:

لقد قام الشيخ أبو عبد الله برحلات خارج الوطن وذلك لأداء فريضة الحج، وعند عودته مكث بتونس حيث قيل أن المشيخة أعطيت له هناك[3] ثم عاد إلى الوطن وأسس زاوية لتحفيظ القرآن الكريم والعلوم الدينية.

مؤلفاتـه:

من مؤلفات الشيخ أبي عبد الله المغوفل نذكر:

– «القصيدة الصمّاء» وهي قصيدة في مدح النبي عليه الصلاة والسلام. ذكر الشيخ أبو راس الناصري أنها تقع في سبعين بيتا[4] كل أحرفها غير منقوطة

(1) الفلك الكواكب والسلم الراقي إلى المراتب(مخطوط) الورقة (6/ أ).

(2) المخطوط نفسه (6/ ب).

(3) يراجع أعلام من منطقة غليزان ص 69.

(4) يراجع أعلام من منطقة غليزان ص71.

– «الفلك الكواكب والسلم الراقي إلى المراتب» وهي أرجوزة ذكر فيها أحوال طالبي طريق التّصوّف، كما ذكر فيها مجموعة من الشيوخ الصالحين. وهي موضوع دراستنا وسأتوسع فيها أثناء دراستي الوصفية لها، وعدد أبياتها مائتان وأربعون بيتاً وعنها قال أبو القاسم سعد الله : « تعتبر أرجوزة (الفلك الكواكب) في أولياء منطقة الشلف لأبي عبد الله بن المغوفل أهم عمل عالج هذا الموضوع بعد (صلحاء وادي الشلف) لموسى المازوني وكان أبو عبد الله من المرابطين البارزين، ولأهميته حاول العثمانيون الإستفادة من نفوذه الروحي في أول عهدهم، والذي يهمنا منه هو أرجوزته في أولياء وصلحاء الشلف ... واعتبر ذلك سلماً للوصول إلى آداب الطريق وإلى الحقيقة».[1]

– بعض الأشعار الدينية والصوفية[2].

وفاتـــــــــه:

توفي أبو عبد الله المغوفل في الخامس والعشرين من محرم سنة 923 هـ – 1517م، ودفن قرب وادي الشلف ويذكر أنه بعد ستين سنة وعلى إثر فيضان كبير تم نقل رفاة الولي الصالــح إلى موضـع يسمى القبـة الشـرقية بالقرب من وادي ارهيـو إلى الشـرق[3]

وله أحفاد كثيرون يسكنون على ضفاف نهر الشلف يسمون بأولاد سيدي بوعبد الله، وقد أنشأت مدرسة قرآنية بالقرب من ضريحه لتحفيظ

(1) تاريخ الجزائر الثقافي –أبو القاسم سعد الله، ج2، ص 123، ط1981، الجزائر
(2) يراجع أعلام من منطقة غليزان، ص70
(3) أعلام من منطقة غليزان، ص70.

القرآن الكريم، وتقام وعدة سيدي أبوعبد الله كل عام في فصل الصيف، يتوافد إليها الأحفاد والمحبون من مختلف المناطق، حيث يُقرأ القرآن كاملا وتلقى المواعظ والدروس من طرف المشايخ والفقهاء.

الدراسة الوصفية:

لقد اعتمدت في دراستي هذه على أرجوزة «الفلك الكواكب والسلم الراقي الى المراتب» وهي نسخة لمخطوط الوليِّ الصالح أبي عبد الله المغوفل في سبع صفحات وعدد الأبيات مائتان وأربعون بيتاً، وقد بحثت كثيرا عن نسخة ثانية ولم أعثر عليها فاكتفيت بهذه النسخة آملا أن أجد نسخة ثانية في المستقبل لتحقيقها إن شاء الله. واعتمدت دراستي على المنهج الوصفي مبديا أهم ما جاء في المنظومة من مواضيع وقيم فنية وتاريخية.

دراسة المنظومة:

لقد ابتدأ أبو عبد الله منظومته بحمد لله والثناء عليه وهذا كعادة المؤلفين والمصنفين في مؤلفاتهم، ثم بعدها صلى على النبي صلى الله عليه وسلم، وبين أن هذا النظم القصد منه نفع المبتدأ ببعض النصائح حول التصوّف وكيف يتقرب المريد إلى ربه وينال رضاه، ويبين أن عنوان هذا النظم هو «الفلك الكواكب وسلم الراقي إلى المراتب» أي السلوك الذي يجب أن يتصف به المريد.

وبعدها يبتدأ في ذكر النصائح للمريد ويتجلى ذلك في أبيات المجموعة الثانية بدءاً من البيت 20 إلى 71. فمن خلال دراستنا لهذه الأبيات نجد الشيخ أبا عبد الله المغوفل يقتبس المعنى من الأحاديث النبوية الشريفة

التي دعت إلى كل ما تناوله في هذه الأبيات كطيب المكسب والملبس والمأكل والمشرب والحذر من اقتراف الصغائر التي توصل إلى الكبائر، وزجر النفس عن طريق الصوم والصبر، والاستغفار والمداومة على النوافل.

ثم ينتقل إلى جانب مهم في الدين وهو المحبة في الله بدءاً من البيت72إلى البيت 99. ويرى أن ذلك يكون عن طريق التزاور ولقاء الإخوان والسؤال عنهم، وزيارة المشايخ والتقرب إليهم لأخذ النصيحة والمشورة، ومحاولة الإصلاح بين المتخاصمين وإلانة الجانب، وإطعام الطعام وإدخال السرور على القلوب ومساعدة المحتاج، وكل ما ينفع الخلق.

ثم يتحول في المجموعة الرابعة التي تبدأ من البيت 100إلى 190 إلى ذكر بعض المشايخ ومناقبهم وكراماتهم، وهو بذلك يدعو إلى اقتفاء أثرهم والتشبه بهم ومن هؤلاء الأولياء من كان يقيم بالبطحاء وكانوا زهاداً، وتجهل قبور معظمهم لطول المدة الزمنية وتعاقب الأجيال، وقد عرج على ذكر بعضهم مثل : أبي عمران موسى الشاذلي وأبي ايوب والبزاغتي وراشد وابن ابي عافية وغيرهم كثير، ولقد ذكر في هذه المجموعة كثير من الكرامات التي كانت تظهر عند هؤلاء الصالحين .

وفي المجموعة الأخيرة التي تبدأ من البيت 191 يذكر لنا الشيخ أحمدوش ويبين ورعه وتقاه وجوده وفضله على طلبته، ثم يذكر كيف أن الحال قد تغير، وأهين العلماء، وبجّل الأراذل والجهال، فبعد انقضاء ثلاثة قرون من الشدّة يسطع نجم الشيخ علي الجوثي، الذي انجلى به ظلام الليل وبزغ نور الصبح، ويستطرد أبوعبد الله المغوفل يعدّد مختلف العلوم التي برع فيها علي الجوثي، والأعداد الكبيرة من الطلبة الذين تتلمذوا على يده، ثم يختم أرجوزته كما بدأها بالصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم.

ليبقى التراث حياً لابد من قراءته والتمعن فيه لنتعايش معه ونجعله مسايرًا لأحوالنا الراهنة وتأقلمه مع الحداثة، بهذا يكون في مقدورنا توجيه التراث وفهمه وتصخيره لخدمة قضايانا العصرية وجعله يساهم في التغيير، فتراث الأمّة هو صانع مجـــدها والمحافظ على بقائها ودوامها، وإن التفاعل مع التراث لايكون إلاّ عن طريق الأدب لأنه الأدب وحده هو القـــــادر على إبراز العناصـر الفعالة في التراث، لهذا تكـون دراسة التراث أمراً أساسياً لا يمكن الإستغنـاء عنه في حياة الأمم والأفراد، فكلمـا بحثنا في التراث عن مقومات الحياة فنحن نبحث عن حلقات سلسلة تربط الماضي بالحاضر وفي نفس الوقت تمهد للمستقبل.

نص الأرجوزة :

قال الشيخ أبو عبد الله بن محمد الملقب المغوفل بن واضح بن عثمان بن عيسى بن فكرون ابن القاسم بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الواحد بن محمد بن عبد السلام بن مشيش الحسني، في ذكر سلوك ومناقب بعض الأولياء ونسبهم وتوطنهم:

الحمد لله الذي ألهمنا ... من فضله لما به أمدنا

رزقنا التوفيق بالعقل المنير ... أكرمنا به وبالنبي البشير

صلى عليه ربنا وسلما ... وآله وصحبه وعظما

وبعد فالقصد[1] بهذا الرجز ... تقريب ما نأى بلفظ موجز

ظاهر اللفظ ليس بالمعقد ... ليحصل النفع به للمبتدي

سميته بالفلك الكواكب ... وسلم الراقي إلى المراتب

أعني مراتب السلوك للمريد ... في الابتدا والانتهاء للمزيد

ينتقل من طور إلى غيره ... كالإنتقال في أحوال سنه

ومع كل طور يلقى درجا ... وفي معارج المقامات عرجا[2]

ينتهي ذاك بانتهاء الأجل ... والفوز من الله لا بالعمل

---

(1) في الأصل: في القصد

(2) في الأصل: بألف الإطلاق والأولى ان يكون السكون في:درج وعرج

ولـكـن العمل للفوز سبب كما أن المنهي عنه يجتنب
من جميع محدثات[1] البدع ومن فعل الرياء والتصنع
ويقتدي بشيخ كامل الشروط يسير بالسنة للعلم متفرط
مـــن يـــرى مـــن حـالـــه من قـوة المزاج واختلاله
يسير سير الـرفـق بالتدريج كمسير الكوكب في البروج
فمنهم مـن يسير سير البدر بسرعه وبعضهم كالغيري
مـثـل عـطـارد ومـثـل الـزهـر و كالقرار والنجم الحمر
والمشتري يليها والمقاتل آخـرهـا رتبة وهـو الأثقل
وكلها تـرجـع فـي الحقيقة لمنهج الصفي في الطريقه
يبتدي أولا بطيب المكسب وفي الملبوس والمكول والمشرب
ويـتـوقـى وقـــوع الصغائر ويزجر النفس بكل زاجر
بالصوم والصبر والاعـتـزال والـذكـر بـالـغـدو والآصـــال
كتهليل وحـمـد واستغفار في اليل نصفه وبالأسحار
ويجتهد فـي فعل المندوب يصير في حقه كالمكتوب

(1) محادثة هكذا في الاصل

كالنفل في الضحى وقبل الظهر وبعده أيضا وقبل العصر
وبعد المغرب قبل العشاء وبالإطلاق من غير استقراء
والصوم مثل النفل في المقيس كالصوم في الإثنين والخميس
وغير هذين كما تقدما في النفل أو باستقرائه أو كلما
أزاده في كل وقت يقع إلا في الاوقات التي يمتنع
و يعتبر في أحوال الأزمنة وفي حوادث الشهور والسنة
ويتذكر رب المصنعات إن لم يرها وفي المرءيات
حين يرى في شكلها إختلافا من نوع او نوعين أو أصنافا
يخلق ما يشاء النعم فالأمر أمره فما شاء حكم
والعبد في قبضته مصير و في مشيئته كالمخير
ويحسن الظن برب البشر و بعباده سوى المجاهد
بفسقه وما طرا عليه فظالم لا
و المتقي عليه سيمة التقى يسعى فيما ينجيه يوم اللقا
لا يكسل عن عمل لا يفعل على حق في الذمة
إن كان مأمور به وقادر على ربه يبادر

فلا يخالف الوعد إن وعدا و يفي بالوعد ويحسن العهدا

ويعفو عن ظلم ويغفر ويقبل العذر ممن يعتذر

و يعيد المريض ويشيع أدى جنازة لها ويتبع

ويغيث المستغيث وينفع من يرجى نفعه ولا يمتنع

و يجر من به يستجير ومثله الغريب والعشير

ويكرم ضيفه بما عنده ويكسى المعدوم إن قصده

ويصل رحمه ويأمر بالمعروف لدين الله ناصر

وينكر ما ينكره الشارع وفعل الخير إليه يسارع

ويسند الأمر إلى مولاه ولايسمو بما سواه

ويحمل الكل وأنواع الاذى ومحظ النفس يكون بمبتدى

من كل ما تحبه وكل لاه مشتغل

فسيف الصبر به يستعين والعون بالله هو المعين

ويصبر صبرا جميلا إن قدرا وإن لم يستطعه ان يتصبرا

محله حين وقوع نزول الواقع في الصدمة الاولى بالامر الفاضع

وحامل الصبر كلعق الصبر ولعقه صعب على المصطبر

ويحمد الله على ما وقع ... من خير او شر كلاهما مع
يأتي به في الحين ... ويثني بالجميل إن
حمدا يوافي زائد الانعام ... والشكر كالفضل
وكل شاكر له الجزيل ... تفضلا من ربه المولى الجليل
الحذر ثم الحذر من اطر البلا ... الكبر والحسد والعجب والمجادلا
إياك أن تأمر من تكلما ... بالعلم إلا لقاصد لتفهما
ومن يرد به الجدال يحرم ... ولا يجاب والمجيب يؤثم[1]
لأن ذاك من فعل الفساق ... بغية من النفاق
كل من يريد حوز الارتفاع ... ويودي للبغض والنزاع
ويلتمس حضه من رزقه ... من الخلاق لا من عند خلقه
لأنه سبق من أوله ... مقدر مقرون بأجله
والتعب يحصل لمن يحرص ... وحرصه لا يزيد لا ينقص
وينزه عن الرذائل ... ليرقى مرقى الفواضل[2]
والرقي بالعلم وبالتسليم ... وبمنهجه المنهج القديم

(1) في الأصل : يثم .
(2) وضعت على هامش البيت لفظة : الكرام

يقف حيث أوقفه الشارع ولايعد وخير الدين الوارع

ولا يخشى في الله يوم اليوم[1] والعدل في الجاه وفي التحكيم

وفي الجاه لا يلح اللجاجا وفي التحكيم يستوى في الحجاجا

والحب في الله والبغض فيه ويشغل الفكر بما يغنيه

يحب الله يحبه الناس وخلاص عمله اساس

عليه تبنى[2] قصور مشيدة تمنعه

محبة الله الإسلام تجدد إن رث بالإقدام

مرة أو مرتين في العام

إن كان ذا عذر به معذور وغيره حيث يشاء يزور

والشارع بين ما استحب بقوله:زر غبا تزد حبا

ويكرم زيارة الإخوان بما استطاع وطيب اللسان

ويدعو[3] لهم كما يدعون هم له يصلح الله حالهم وحاله

ولا يرد خائبا من زارا أخا في الله طوعا وإختيارا

(1) هكذا وردت في المخطوط وغالب الظن أنها لوم لائم

(2) في الأصل : تبنا

(3) في الأصل : يدعون

أو زار شيخه المقلد له ... أو عالما بعلمه علمه
لكنه يزاد للمقلد ... مرتبة كمرتبة الوالد[1]
وللوصول سريعا أسباب ... لبعضهم وهبها الوهاب
منها نصح المشاور إن شاور ... والصلح بين اثنين بل وأكثر
يسعى فيما حقد الحاقد ... وينفي باللين عناد العاند
منها لين القول في الخطاب ... ومثل ذاك في ردي الجواب
حسن الخلق إطعام الطعام ... لجائع وصلة الأرحام
ومنافع الخلق لله ... بنية صالحة كالجاه

وإدخال السرور قلب المؤمن

وكل ما فيه تطيب للنفس ... كزوال الحزن ودفع البأس
وإن كان يجب كالإنذار ... لمعسر ومواساة الجار
من غيره وكتخليص الهالك ... من نفس أو مال لعجز المالك
وغير ما يعرض في الطريق ... من نظر أو مانع كالضيق
بالخطاب به لكل من قدر ... ويفوز بأجره من له بدر

(1) في الأصل : الولد

يخاطب بزواله القادر ... ويفوز بأجره المبادر

فاعمل ولا تنظر لعملك ... وأنظر غداحمة وأحصر لهمتك

بربك وتبتل تبتيلا ... سبحانه فاتخذه وكيلا

كمل ما يطلبه المريد ... قليل العمل به يستفيد

والعالم مستغني بعلمه ... بالكتاب وسنة نبيه[1]

وبعد نذكر ماأوعيت ... من الاشياخ وعنهم رويت

مناقب بعض أهل الإيغاث ... منشأهم في القرون الثلاث

في أول السادس والسابع ... والثامن إلا غلا البعض في التاسع

مشهور الاسم عن فشا سميته ... وغيره إلى غير أسلمته

لعل[2] ان يأتي ما يعرفه ... بسيمة او بوصف يصفه

والغرض التبرك بمن مضى ... ولمن بعدهم فلا معاوضا

بتذكر البدور من مشايخا ... تقدموا في زمان انسلخا

على سبيل الحك والتبرك ... وللانتباه[3] الغافل الممهنك

---

(1) ورد بهامش هذا البيت : قف على ما يطلبه المريد

(2) وردت في الأصل : لعلي

(3) – وردت في الأصل والانتباه

لـعـل[1] أن يفيق مـن غفلته ... ويرجع على صـلاح حاله

فكم غافل افـاق واقـتـفـى[2] ... بـالـرفـيـق الـثـالـث

قد جاء في التنزيل لا ارتياب[3] ... يقبل الله توبة مـن تاب

منهم رجـال سكنوا البطحاء ... كانوا بها بـذور[4] أصفياء

لم يعرفوا قبورهم في عصرنا ... إلا مع التحري[5] في أماكنا

فكلهم درسـوا بـانـدراس ... زمانهم فهم من المناسي

لم يفني اللحد لندر وانجل خبلو ... جرى عليه الدهر ذيله عفا

وبعضهم افـاق لـم يدخلا ... في الحصن بل في قرية منفصلا

كأبي عمران موسى الشاذلي ... الموصوف بالفضل والكمال

حاز كثيرا[6] من علم الظاهر ... ممثل ذلك في السر المستتر

وكـم مـن مستغيث استغاث ... بـه وقـد عجلته الإغـاثـه

وبـطـيـب هـوارة يلعب ... وإلى الجانب الرفيع ينسب

---

(1) وردت في الأصل : لعلى

(2) وردت في الأصل : واقتفا

(3) في الأصل : الارتياب

(4) في الأصل : بدور من دون ألف

(5) في الأصل : اتحرمن دون ياء

(6) في الأصل : كثير من ألف

أفـاض الله علينا مـن نـوره ... وسقانا خير السقا من بحره

كـأبـي أيـــوب كـالـيـزاغـتـي ... وراشــد وابــن أبـي العافية

وسابقهم ألجما قـد أفلوا ... غاشيهم حاليك فيه نزلوا

لأن مــن يـعـرفـهـم تـحـولا ... وحل بالأرض من بعدهم جهلا

فكلهم خفوا سـوى اليسير ... مقبرهم في المدفن الدثير

أسماؤهم مجهولة لا تعرف ... و لا خرجة ميزها من يعرف

إلا المميز شــرف المسيل ... من عين مقدار عبد الجليل

مـحـلـي لــم يـنــداس علمه ... وشــهــرة شــرفــه وعلمه

وكان ذا فضل وذا حس عجب ... يجاب سريعا إن دعا عن قريب

وعــرف[1] صيته بلاد المغرب ... لـذنـا منه ولــدا المقرب

وواقف بباب السلب والعطاء ... في القريبين أقصاهما والوسطا

ويـروى عن بعض المدرسين ... بفاس في جامع القرويين

كان لا يرفع صوتا في المجلس ... ولا يمدّ رجليه محتبس

ولا يـواجـهـه فـي حاجته ... وإن بــدر فاستتار كنفه

(1) في الأصل : عرق

حتى نعى الناعي[1] به وسمعا ... بموته فمدّ رجليه معا

ثم تنفس الصدا[2] واقفا ... وقال آمنت وكنت خائفا

ضيف عبد الجليل ... لم نسمع منذ زمان طويل

ضريحه دعاه الله نور ... وفي الفردوس يسكن قصورا

وبيننا وبينه في الآخرة ... يجمعنا محي العظام النخره

ونكون معه آمنين ... مع الأحبة والأقربين

فهذه رغبة يا مولاي ... ونيتي يا منياي

ومنهم السعدي وسعاده ... ذي المقام الرفيع والسياده

شاد بنيله وابتهاله ... بالصوم والتهجد في ليله

تصد لذاك في أوله ... ثم للواحدة مع انتقاله

من مكان لمكان يطوف ... وبالمورید الوف مألوف

مشتغلا بالعلم في ابتدائه ... ثم إلى العزلة في آخره

إليه يهرع من كل جانب ... يبلغ ما يروم كل طالب

---

(1) في الأصل : الناع

(2) هكذا في الأصل ولعلها : الصعداء

وحيث ما بدت له كرامة ... بموطن لم يرد[1] الإقامة

يفر منه مسرعا في الحين ... لا يمكث يوما ولا يومين

حتى انتهى لسا الغنام ... أمره بالمكث والمقام

قال له مكانك يليل ... ملازما له ولا تزول

فامتثل الأمر لذاك واختفى[2] ... بمكان مخافة أن يعرفا

حتى أتى صايد انتهى إلى ... تلك المكان ظن صيدا دخلا

أرسل جارحه وانتظره ... لم يأته متبعا[3] أثره

وجرى يقربه من يم ... قال له أتيتك شفيع

أن تدع الجريح يرجع كما ... كان من قبل أن يأتيك صالح

ترسله لك برب العالمين ... بالنبي جدك طه الأمين

دعا له فاستجاب الدّعاء ... قام كما لم يكن به داء

وبعد ذا أوصاه أن لايخبرا ... بما رآه أويكون ساترا

فهذه كرامة أخفاها ... وله أيضا كثير سواها

كنبع الماء وكحبس المركب ... والتمر والحب من غير تعب

---

(1) في الأصل : من ذو

(2) في الأصل : اختفا

(3) في الأصل : متبع

لـمـسـه بـيـده ورده ... بـالـكـيـل ومـا بـه
قال له كل وابذر من غير شفق ... وعن طهارة فخذ ما تستحق
فـعـل مـاقـالـلـه وانـتـفـعـا ... بـه وصـار غـنـيـا متسعا
ومـنـهـا مـا اتـفـق الأسـيـر ... أن بـعـث إلـيـه للشعير
ولـم يكن عـنـده فيما سبقا ... حب ولا يكسب شيئا مطلقا
حـرّك أشـجـارا تناثر منها ... حـب شعير شبيها بحبها
جمعوه على أسـود حملوه ... ومع من أتلى إليه أرسلوه
لما رأى الأمـيـر ذا ترعرعا ... وبـادر لـلـقـائـه مـسـرعـاً
كلمه الشيخ كـلامـاً موجزاً ... وعظمه ثم انصرف عنه نهزاً
وبـادر إلـيـه بـالـهـديـه ... واعـتـذر عـن الـرسـول
دعـا لـه بـالـخـيـروأثـنـى بما ... وعـن مـافـات بـه ندما
عمـت. سيـرته واستحسنت ... وكل أرض بأهلها غمرت
آمـن من كـان خائفا وهاربا ... وصـار كـل بعيد مقربا
ومنها كان في أقصى الأقصاص ... ولـه وعـد في مكان خاص
وبين الموضعين نحو الشهر ... يسيرها من يجد في السير

فنسي الوعد ليوم الوعد تذكر ثم أتى للمسجد

صلىّ العصر وقال بسم الله إذاً لنا ما نأى يا له

فصلى المغرب مع من وعد في محل الوعد جمعا لا مفرد

ومنها كان في بعض الأسفار يسير مع رجال خيّار

فوجدوا نهرا عظيماً تأخروا وقدّموه أولا

أشار للماء باليد رجعا حتى أجازوه في الحين اندفع

فاستقبل وصلى ركعتين ورفع يديه مرتين

وقال ياإخوان لاتصاحبون ولا لقاء إلى يوم الدين

وشرع في مشيه وانفصلا فغاب فلم يدروه أين يستقبلا

هذا الذي صححه العدول من ثقة عن ثقة منقول

والبعض زاد والبعض..... كلاهما

فالمنقص نقص من كرامته أجلها وعدل عن نفسه

وصفه بهجة تباينه فظن من يجهل ذلك نسبه

مع أنه من بيتى آل المصطفى من نسل أنجاد كرام شرفا

يتصل نسبه بالفاضل أبوالمحال عبد الله الكمال

وأحـمـدوش لقب الأحـمـرا وكـان فاضلا تقيا زاهـرا
أزهـد الدنيا راغبا في الآخرة وخـرج من زمـرة الجبابرة
نسبه مـن بني عبد الـوادي تمرة الآبـاء والأجـدادي
تـعـبـره بـتـجـويـد الـقـرآن قد كان ذو حفظ وذو إتقان
يقصده مـن يـريـد التحقيق يـكـفـلـه وعـلـيـه شفيق
يطعمه مـن أطـيـب الطعام مـابـقـى للبلوغ الـمـرام
ولـلـصـغـار يـجـعـل معلما بـأجـرة مـن عـنـده مسلما
قـد قيل هـكـذا والـلـه أعلم بـغـيـبـه الأمـرلـه مسلم
ونفر منهم في حصن القلعة من غربها وشرقها والقبلة
وكـلـهـم لـهـا حـارسـون وهـم عـن الـبـلاء يدفعون
ما لم تبد الفواحش العظام ويسكت الـمـرق الحكام
ينعكس الأمـر بسوء الحال بـالـذل وسـهـدوبـالإقـلال
حـتـى يصير الـغـنـي فقيرا وذي الوجاهة فيها حقيرا
ويـتـولـى أمـرهـا لـكـاع ورؤوسـهـا لـهـا تـبـاع
أيـن يـكـون الفقير الحقير وأيـن المستقر يـا قدير

فاللطف منك يرجى يا لطيف والملجأ إليك يا رؤوف
فلعل الفرج سيكون والعسر بعد اليسر يستبين
وبعد هؤلاء المذكورين بمدة كثير السنين
نحو ثلاثة قرون سلفت نشا في الأرض من به ازينت
نزل فيها كنزول الغيث شيخ شيوخنا على الجوثي
نجم السعود حل بالمنازل ونوره مستمر لا يؤفل
به انجلى ظلام الليل الحالك أعقبه بياض الفجر السامك
بيده لواء أهل العلم وسلموا له فحول القوم
وأخذوا عنه لباب في المنهجين
محدث عندهم مفسر والبدور والعشرة ماهر
وفي المنطق والبيان والأصول والفرع النقلي والمعقول
بحر لا يرقى ساحله مركب وفي العروض مثله والأدب
جامع من مانع من حاله إن الزمان لا يأتي بمثله
وكان شيخه في العلم الباطن كبحر هائل
فكل من قصده نال المنى وظفر بالمقصود وعنى

ولبس خير ملبوس ومنح من فضل الله خير ما به فتح
وظهر عليه نور ساطع وبرهان للإستشفاء نافع
وصار كالكوكب في المنازل ضياؤه مستمرلا يؤفل
وأحذوا عنه بالوجه الكامل أبو غنيسة وأبو العامل
سقاهما سقي ظمآن تعب من عذب نهر اللذيذ الطيب
مغير مهلة ولا توانـي ظهر الفضل والسر الرباني
ولهما عجب في الخوارق وبلغ مبلغ غير لائق
بأهل السنة والعلم الطاهر علمهما لدى مثل الحاضر
يجمعهم بربنا توسلي باصلاح الباطل والسر المحلي
وفي الدين والدنيا وفي الآخرة ومع الآباء وذو المحبتي

فلم نر كاهولا في اليوم الصاعب

قد مشى جمعه الفريق في أمواج الهوى جرى عميق

قصير الباع وقليل العمل يرجى غفرانك وفضل المرسلي
فالعفو منك وإليك المنجى والكرم من الكريم يرتجلى
فينظره أبو عبد الله غير مفاخر ولا مباه

بل قصد الفضل من أهل الفضل وبلوغ المنبر من غير غضل

لعل أن يكون من زمرتهم ويقتبس قبسا من نورهم

وصلى ربنا على خير الورى والآل والصحب الكرام البرر

صلاة مستمر الدوام بدوام الليل والأيام

وتابع التابعين والحمدوالشكرلربالعالمين

- إنتهت أرجوزة أبي عبد الله بن محمد الملقب المغوفل (بوعبد الله).

المصادر والمراجع:

1 - مخطوط أرجوزة «الفلك الكواكب والسلّم الراقي إلى المراتب» لأبي عبد الله المغوفل

2 - تاريخ الجزائر الثقافي-أبو القاسم سعد الله- الجزء الثاني- طبعة -1981 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر .

3 - أعلام من منطقة غليزان- محمد مفلاح- طبعة دار هومة.

الشيخ مولاي العربي بن عطية الدرقاوي ومواقفه من المقاومة الوطنية من خلال كتابه «الاستمدادات الربانية»

د. محمد خاين

كلية الآداب واللغات بجامعة الشلف

تمهيد:

تزخر منطقة الشلف السفلى، كغيرها من مناطق الجزائر، بتراث فكري وعلمي زاخر خلفه علماء أجلاء بررة، كرسوا حياتهم خدمة لدين الله، ونصرة لسنة نبيه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وقد تجسدت جهودهم في هذة الزوايا والمساجد والكتاتيب المنتشرة هنا وهناك دالة على جهودهم، وعلى أنهم قد أفنوا أعمارهم هادين مهديين، وما يعزّز قيمة تلك الجهود كونها جاءت في زمن نضبت فيه القرائح، واستغلقت فيه العقول، فكان هؤلاء الأقطاب منارات تهدي، وعلامات مضيئة في درب طويل ومظلم. وقد ارتأينا أن نخصص هذه الورقة لواحد من هؤلاء الأعلام، ألا وهو الشيخ مولاي العربي بن عطية العمّاري البوعبدلي[1] نسبا،

(1) نسبة إلى الولي الصالح سيدي عمار (دفين قرية أولاد سعادة، بلدية اولاد مع الله ولاية مستغانم، وضريحه مشهور، ويزار) بن سيدي بوعبدالله المغوفل(دفين وادي رهيو). وقد دأبت بعض الأقلام الجزائرية على وصفه بالغماري وهو خطأ في النسبة، لأنه ينتسب إلى الولي المذكور، كما أن مسقط رأسه بقرية تحمل اسم هذا الولي، وهم أولاد سيدي عمار، وتقع في الشمال الشرقي من غليزان وتبعد عنها بحوالي30كلم.

الونشريسي دارا وإقامة دفين قرية ماطر بتونس، المتوفى سنة 1272هـ[1]. الملقب بـ«الطويل»[2].

وعليّ أن أعترف أن أول اتصال لي بهذا القطب الصوفي كان من خلال أحد الملتقيات الوطنية[3]، وقد شعرت حينها بنوع من جلد الذات، نظرا لكوني ابن المنطقة التي ولد ونشأ فيها المترجم له، ومع ذلك أجهل عنه كل شيء. لحظتها تولدت لدي الرغبة في جمع ما يمكن جمعه عنه من معلومات، وخصوصا بعد معرفتي بمكانته ومدى تأثيره في الوسط الذي عاش فيه.

ومن ثمة توجهت إلى البحث في الموروث الصوفي الذي خلفه الرجل ممثلا في كتابه الذي لا يزال مخطوطا، والذي يحمل عنوان: "الاستمدادات الربانية فيما منّ الله علي من بحر الوجدانية"، إذ إن قصدنا يتجه إلى تقديم قراءة في مواقفه من أحداث عصره، وخاصة تلك التي دونها ومن ثَمّ عرضها على ما سجله الخطاب الكولونيالي عن الطريقة الدرقاوية وبالأخص

(1) ينظر: د.المختار وبعناني. تفسير سورة الكافرون بالإشارة – تحقيق–مجلة القلم. مجلة محكمة يصدرها أساتذة من قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة وهران السانية. ع7. سنة2008. ص1.

(2) لقب بالطويل تمييزا له عن شيخه مولاي العربي بن أحمد الدرقاوي، مؤسس الطريقة الدرقاوية، بفعل تشابه الأسماء.

(3) كان ذلك خلال الملتقى الوطني الثاني المنظم من قبل قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف يومي 3/ 4فبراير2009، تحت عنوان» أعلام حوض الشلف»، وذلك بفضل الورقة التي قدمها أستاذنا الدكتور المختار بوعناني عن مولاي العربي بن عطية بعنوان: «الشيخ مولاي العربي بن عطية(ت1272) الملقب بالطويل:سيرته ونسبه». وقد أطْلعَنا الدكتور على مخطوط للشيخ، الموسوم بـ: «الاستمدادت الربانية فيما منّ الله من بحر الوجدانية»،وقد مكننا – مشكورا– من نسخة مصورة منه.

شيخها في الجزائر ألا وهو المترجم له، وموقفه من أحداث عصره البارزة.

وعليه فإن هذه الورقة سترتكز على المدونة النصية التي خلفها الشيخ، وكذا ما كتب عنه في الأدبيات الاستعمارية الفرنسية كان ذلك خلال الملتقى الوطني الثاني المنظم من قبل قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف يومي 3 – 4فبراير2009، تحت عنوان «أعلام حوض الشلف»، وذلك بفضل الورقة التي قدمها أستاذنا الدكتور المختار بوعناني عن مولاي العربي بن عطية بعنوان: «الشيخ مولاي العربي بن عطية(ت1272) الملقب بالطويل: سيرته ونسبه». وقد أطْلعَنا الدكتور على مخطوط للشيخ، الموسوم بـ: «الاستمدادت الربانية فيما منّ الله من بحر الوجدانية»، وقد مكننا – مشكورا– من نسخة مصورة منه.، انطلاقا من كون الرجل ينظر إليه على أنه من رواد الطريقة الدرقاوية (إحدى فروع الطريقة الشاذلية الأم) في الجزائر، وملقن وردها ومعطي عهدها بلا منازع.

وستعمل هذه الورقة على تجلية بنية شخصية العربي بن عطية منظورا إليها من خلال موقفه من أحداث عصره، إذ إنه عاصر نهاية العهد التركي، بما صاحبه من أحداث واضطرابات كثورة درقاوة في المنطقة الغربية (1800 – 1813 م) من البلاد، وبداية الاحتلال الفرنسي للجزائر.

ولن تكون هذه الورقة قائمة بالضرورة على تلك الثنائية النمطية: مع من؟ وضد من؟ : "لأن التجربة الصوفية الطرقية تجربة دينية تاريخية اجتماعية معقدة ليس من السهل أن تصنف كما تعودنا دائما على أن هذا من الإسلام أو ذاك؟ أو هل كانت مع المستعمر أم لا"[1]، وإنما ستحاول

(1) ينظر: بومدين بوزيد. التصوف والسلطة: جدل المقاومة والسلم ورمزية صاحب الوقت. ذاكرة الأمة. 2012. ص11.

أن تسلك منهجا مفارقا قد يوصل إلى وضع الأمور في سياقها الحقيقي، بحيث تسهم في النهاية في التأسيس لمشروع متصالح مع الذات وموروثها التاريخي وبالأخص الصوفي منه، ونقصد هنا موقف العربي بن عطية من الأتراك ومن الاحتلال الفرنسي، ومن ثورة الأمير عبد القادر، ومن الشخصيات الصوفية المعاصرة له التي أعلنت الجهاد ضد المحتل .

وهو ما يعني أننا سنعيد طرح القضايا في سياقها التاريخي الذي أنتجت فيه، إذ إننا نرى أنه لا يليق بنا أن نعيد تسييق تلك القضايا في أطر أخرى مغايرة للملابسات والظروف التي وجدت فيها ولها، أو أن نقدم لها قراءة مؤدلجة، ومن ثمة فإن العلاقات التي يبدو أنه كان يشوبها الاضطراب والتوتر في عصر المترجم له يجب ألا نخرجها عن إطارها العام، أو أن نقدم لها قراءة تنطلق من رؤية ترى وجوب رد كل الأحداث إلى مبدأ الشرعية الثورية، ومن ثَمّ يقوم الخطاب التاريخي بتبني لغة قضائية يكون سببها: "انخراط بعض المؤرخين في لحظة تاريخية لها آلياتها وخصوصيتها ثم تعميم ذلك على قرن ونصف قرن، أي منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 م"[1].

وقبل الولوج إلى المدونة النصية، نرى أنه من اللائق منهجيا أن نقدم ملمحا عن سيرة مولاي العربي بن عطية.

نسبه وسيرته :

ينتمي الشيخ مولاي العربي بن عطية إلى عائلة شريفة تعد من أشهر العائلات في منطقة الشلف السفلي، وهو ما أشار إليه ألكسندر جولي (A.Joly)، حينما تعرض إلى نسب الشيخ محمد بن محمد بن رقية المعروف

(1) المرجع نفسه. ص28.

بالموسوم (الميسوم) تلميذ الشيخ عدة بن غلام الله، فذكر أنّ أمه (الشيخ الميسوم) هي فاطمة بنت العربي من أعيان العائلات بالشلف الشرقي، ومنها عائلات سي العريبي، وسي محمد الأحمر، ومولاي العربي بن عطية، وأن هذه العائلات اشتهرت في عهد الأمير عبد القادر[1].

يقول الشيخ متحدثا عن نفسه: "كنت أقرأ القرآن العظيم عند بعض المشايخ ببلاد السحاري بإزاء مينة[2]، وقد جمعت القرآن، وأنا ابن ثلاث وعشرين سنة"[3]. كما يشير الشيخ إلى الكتب التي اطلع عليها، ومنها: "شرح الحكم العطائية[4]، ومرآة المحاسن[5]"، إضافة إلى هذا فقد تحدث

(1) Voir : A.. Joly. Etudes sur la Chadouliyas. In Revue africaine. Vol .51. 1907.p.6.

وقد نقل عنه أبو القاسم سعد الله هذه المعلومة في تاريخه.ينظر: ينظر: د.أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. دار الغرب الإسلامي. 1998 م. بيروت. لبنان. ج3. ص228.

(2) السحاري وتعرف أيضا بعكرمة الشراقة(بقاف معقودة)، تتبع إداريا بلدية يلل، وتقع إلى الشمال من عاصمة البلدية بحوالي 10كلم.

(3) ينظر: العربي بن عطية. الاستمدادات الربانية في ما من الله علي من بحر الوجدانية. مخطوط. ص3.

(4) الحكم العطائية وهى أهم ما كتبه ابن عطاء الله السكندري أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عيسي بن عطاء الله السكندري، هو أحد أركان (الطريقة الشاذلية الصوفية) التي أسسها الشيخ أبو الحسن الشاذلي(ت 1248م) وخليفته أبو العباس المرسي (ت1287 م).

(5) مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن أو نبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغر ب. تأليف العلامة أبي حامد محمد العربي يوسف الفاسي الفهري. دراسة وتحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني. ط1./ 1424هـ - 2003م، مطبعة النجاح الجديد الدار البيضاء.

الشيخ عن البلدان التي زارها، حيث يقول أنه قد زار مدينة فاس بالمغرب، في أكثر من موضع من كتابه، وفي مناسبات عدة، وكان الهدف في كل مرة زيارة شيخه مولاي العربي الدرقاوي[1]، وقد هاجر بعدها إلى تونس، حيث يقول: "وقد كنا بأرض الصحراء بنية الهجرة إلى المشرق، واجتهدنا غاية الاجتهاد، فلم يتيسر لنا، فإذا بالرومي(الفرنسي) حاكم المدية- دمره الله- بعث لنا بالأمان ليركبنا في البحر بلا أجرة ولا زاد من الجزائر(المدينة) إلى تونس فقدمت إليه فاتفق ما قاله لنا"[2].

مكانته في التصوف ومنزلته العلمية:

للتدليل على المكانة التي كان يحظى بها مولاي العربي بن عطية يكفي أن نشير إلى أن الشيخ عدة بن غلام الله ما كان يذكره إلا مقرونا بصفة أستاذي وشيخي أو ما دار في فلكهما من ألفاظ التوقير والإجلال فقد تكررت مثل هذه الألفاظ في إحدى وعشرين موضعا في خاتمة كتابه الرسائل لأهل الوسائل، وأنه أذن له في تلقين الورد[3].

وهو ما نقله الشيخ الجيلالي بن عبد الحكم في كتابه المرآة الجلية عن حفيد الشيخ عدة الشيخ الحاج محمد بن الحاج أحمد بن عدة من أن مولاي العربي بن عطية هو شيخ وأستاذ الشيخ عدة غلام الله، وأنه حينما أخذ العهد على الشيخ مولاي العربي كان عمره أربعين سنة، وأنه هو الذي

---

(1) الشيخ مولاي العربي الطويل.الاستمدادات الربانية. مصدر مذكور. ص5

(2) المصدر نفسه.ص31.

(3) الشيخ عدة بن غلام الله. خاتمة كتاب الرسائل لأهل الوسائل. مصدر مذكور. ص72.

أشار عليه بسكنى محنون قائلا له : "اسكن محنون فإنك مأمون" وذلك سنة 1260هـ، وأنه ما قَبِل قَبْل ذلك خطة القضاء في دولة الأمير عبد القادر إلا بعد استشارته لشيخه مولاي العربي الطويل[1].

وتتفق الكتابات الاستعمارية الفرنسية على أن أقطاب الطريقة الشاذلية الدرقاوية في الجزائر هم: مولاي العربي بن عطية وأنه من ذرية سيدي بوعبد الله ويلقب بالطويل الونشريسي، وأن ريادة الطريقة انتقلت من بعده إلى الشيخ عدة بن غلام الله، وأنها آلت من بعده إلى الشيخ الميسوم بن محمد المتوفى في 3 فبراير1883م [2]. كما تشير هذه الكتابات إلى أنه في سنة 1840 م (1255–1256) كان زعيم الطريقة الدرقاوية هو سي الحاج بن عبد المؤمن في ريف المغرب (بعد وفاة العربي بن أحمد الدرقاوي) وفي الجزائر مولاي العربي بن عطية صاحب الونشريس، وتصفه بالزعيم الروحي الذي له التأثير على الكثير من الأتباع[3].

(1) ينظر: الشيخ الجيلالي بن عبد الحكم . المرآة الجلية في ضبط ما تفرق من أولاد سيدنا يحي بن صفية. دار ابن خلدون. تلمسان. 1953. ص271، 275، 276

(2) Voir :Louis Rhinn. Marabouts et khouans : Etude sur l'Islam en Algérie. Ed : Adolphe Jourdan. Alger.1884.p.236. Et Octave Depont et Xavier Cappolani. Les confréries religieuses musulmanes. Ed : Adolphe Jourdan. Alger1897. pp.447-448.

(3) Ibid.p.239.

كتاب الاستمدادات الربانية في ما منّ الله علي من بحر الوجدانية[1]:

تنوعت الموضوعات التي طرقها مولاي العربي بن عطية في كتابه"الاستمدادات الربانية"، كما أنها بنيت على طريقة عصره في الكتابة والتأليف، إذ جاءت على شكل رسائل وتقاييد، يبدو أنه توجه بها إلى أهل محبته، وكذا خصومه ومنتقديه من منتسبي الطريقة الدرقاوية. وعلى الرغم من تنوع الموضوعات الذي أشرنا إليه آنفا فإنها لم تخرج عن المنحى الصوفي العام، وهو ما يعني في نظرنا أنها تخدم غرضا محددا، وهو الإفصاح عن فلسفة التصوف في الطريقة الدرقاوية. ويبدو أن المترجم له قد سجل هذه التقاييد بعد الهجرة إلى تونس، وقد كانت إشارته إلى ذلك صريحة حينما تحدث عن ملابسات هجرته، وكذلك في قوله: "فاعلم أيها الأخ أني أريد أن أقيد بعض ما ورد علينا من زمن البدايات إلى زمن النهايات"[2]، كما ذكر الغرض من هذا التقييد: "وذلك من باب التحدث بالنعم ولئلا يغشم أهل المحبة فينا وفي طريقنا"[3]، وكان هذا بمثابة المقدمة لهذه الرسائل. ويمكن أن نجمل ما تم طرقه في:

- جوانب من سيرته الذاتية.
- الرد على المنتقدين من أهل الطريقة

---

(1) ينظر:لمزيد من التفصيل بشأن الموضوعات المطروقة في الكتاب بومدين بوزيد. التربية وأصول المشيخة في رسائل الاستمدادات الربانية في ما من الله علي من بحر الوجدانيات للشيخ العربي بن عطية الونشريسي. ضمن دور الشيخ عدة بن غلام الله في نشر الحكمة الصوفية وممارسة القضاء. سلسلة القوافل العلمية.منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف. تيسمسيلت. 2011 م. ص19 وما بعدها.

(2) الاستمدادات الربانية.مصدر مذكور.ص2.

(3) المصدر نفسه.ص2.

- التحدث بنعم الله التي من بها عليه في التصوف.
- الموقف من أحداث العصر.
- مناقب شيوخه.
- فلسفته في التصوف:

أ- كراهية الظهور وحب الخمول.

ب- مكانة الرؤيا وقيمتها في حياة الشيخ الصوفي.

ج- الهجرة من دار الحرب ومسوغاتها الشرعية.

د- الاعتقاد الراسخ في كرامة الأولياء.هـ- ضرورة الشيخ للمريد ووجوب توقيرة والمغالاة في حبه.

- نصائح وتوجيهات إلى أهل المحبة من الإخوان والمريدين.
- تفسير آيات وسور من القرآن الكريم تفسيرا إشاريا.

ويبدو لمتتبع الخط العام الذي سارت عليه رسائل العربي بن عطية ومن خلال جملة القرائن اللغوية والحالية أن المعني في جزء هام من رسائل الاستمدادات الربانية بالرد هم مريدو رفيقه في الطريقة وفي التتلمذ على الشيخ مولاي العربي بن أحمد الدرقاوي الشيخ أحمد ظافر المدني الذي اتخذ من مصراتة في ليبيا مقرا لدعوته[1].

ويتأكد لدي هذا الزعم من خلال المقارنة التي يمكن عقدها بين محتوى الرسائل والنص المنشور في المجلة الإفريقية[2]، والذي يتحدث فيه مفتي دلس في سنة 1855م عن الحاج موسى الأغواطي المدعو بوحمار، ومؤدى

(1) المصدر نفسه. ص90، 183.

(2) Voir :A..Berbrugger..El-Hadj Moussa, ou l'Homme à l'âne .In : Revue africainne.Vol.1.1856.p.41.

هذا النص أن العربي بن عطية قد رد على الحاج موسى برسالة قد بلغ عدد صفحاتها مائة وعشرين صفحة، وفيه إشارة إلى أن الشيخ أحمد المدني قد أوصى الحاج موسى بزيارة العربي بن عطية في الونشريس، والذي قام بالفعل بزيارة هذا الأخير إلا أنه لم يلق ضالته لديه فكاتبه برسالة طويلة يبدو أنها هي التي أشار إليها العربي بن عطية بقوله: "يكاد الكاغط يتمزق منه لثقل ما كتب فيه من سوء الكلام"[1] [2].

تمركز الذات الصوفية في الرؤيا:

انبنت مواقف العربي بن عطية من الأحداث التي عاصرها على الرؤيا، إذ كان ينطلق في الحكم منها، وفي التصرف سلبا وإيجابا، ونلمس هذا جليا في كثير من تقاييده التي حوتها رسائل الاستمدادات الربانية، وهو ما يعني أنه لم ينطلق من مرتكزات واقعية تقوم على تحليل الأحداث الحاصلة، واستشراف المستقبل، وتقدير التبعات التي قد تنجر على ما يتخذه من مواقف أو يتبناه من أراء. فالرؤيا لدى غالبية الصوفية: «أدنى درجات الكشف أما أعلى الدرجات في الكشف فهو الوحي»[3]

وهذه الرؤيا إما أن يكون مصدرها مشاهدة أو مكاشفة ربانية في حال نوم أو يقظة. ونراه يتبنى هذه الطروحات في كل حياته وفي كل ما يعرض

(1) المصدر نفسه.ص2.

(2) قام الدكتور يحي بوعزيز –رحمه الله– بتقديم ملخص للمقال المذكور في المتن في كتابه: ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر الصادر عن دار البصائر في طبعة خاصة سنة 2009 م، ص57وما بعدها.

(3) حسن الشرقاوي.معجم ألفاظ الصوفية.مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.القاهرة. ط1 .1987 .ص156.

له مهما كانت جسامة الحدث الذي هو بصدده[1]: «...ثم قلت لهم ما الذي حملكم على هذا؟ هل وجدتم شيئا من كلام الأئمة يوافقه؟ أو هو وارد رباني عن كشف وعيان؟ أو إخبار من الرسول(ص) مشاهدة بالعيان»[2].

ولعل هذا سر الخلاف بين المتصوفة والفقهاء، فالرؤيا لدى الفقهاء: "من غير الأنبياء لا يحكم بها شرعا على حال"[3] إلا بعد عرضها على الأحكام الشرعية، فإذا وجد ما يسوّغ الأخذ بها تمت مراعاتها، وإن كان خلاف ذلك أهملت.

وللتدليل على الدور المفصلي للرؤيا في حياة العربي بن عطية نورد أمثلة عن المواقف التي وقفها في حياته منها رفضه الوجود التركي بالجزائر وطلبه في رؤياه تخليص البلاد منه، ومؤداه التقاؤه بوليين صالحين عرف أحدهما، وكان ذلك بالونشريس بعد انتقاله إليها : "فقلت لهما إني أريد هلاك الترك في هذه السنة ولا إله إلا الله عليها فوافقاني على ذلك فهلكوا في تلك السنة، ولم يكن بين تلك الرؤيا وهلاكهم سوى أربعة أشهر أو خمسة"[4]. وكذلك الشأن في مسألة الاحتلال الفرنسي للجزائر، فالعربي بن عطية يقول إنه اطلع على الأمر قبل حصوله بفعل الرؤيا[5]. ونراه يؤكد على مسألة تحقق

(1) لمزيد من التحقق من مسألة الرؤيا وتأثيرها في حياته، قراره الهجرة بفعل رؤيا أيضا.الاستمدادات الربانية.ص15-16.

(2) المصدر نفسه.ص49.

(3) محمد بن الطيب. فقه التصوف:بحث في المقاربة الأصولية الفقهية عند أبي إسحاق الشاطبي. دار الطليعة.ط1. بيروت. مارس 2010 م. ص83.

(4) الاستمدادات الربانية.ص8.

(5) المصدر نفسه.7-8.

الرؤى التي يراها: "فعدت منذ خلت الجزائر من الترك وعمرت بالفرنج ما من موطن أرى نفسي فيه على حال الجذب إلا ويقع فيه أمر عظيم من الفتن والأخذ والسبي والقتل وغير ذلك..."[1].

المغالاة في توقير الشيخ والاحتكام إلى أوامره:

كما أنه كان يحتكم إلى آراء شيخه وأوامره في حال الغيبة والحضور، بعد معاينته لصدقه، وتحقق دعواه في أكثر من موقعة وحالة، إضافة إلى هذا فإن تعظيم شيوخ التربية يعد من الأركان الركينة في تعاليم أغلب الطرق الصوفية : "لأن ثمرة العلم والعمل به لا تكون إلا على يد المشايخ الربانيين لأن من لا شيخ له فالشيطان شيخه كما قيل ومن لا شيخ له لا قبلة له، ومن ليس له أستاذ فهو بطال، وحذف الوسائط اختلال"[2]، حتى إننا نلحظ أنه وصل إلى حد العمل بمقتضى ذوق الشيخ وكشفه ورؤيته له في المنام، ونراه يحذر من مخالفة أوامره لما لها من تبعات خطيرة[3]، وبالتالي صارت : "هذه الطريق المعرفية مصدرا للأمر والنهي الشرعيين"[4]وهذه من مآخذ الفقهاء على الصوفية، ومن ثمة تشكلت لدية جملة من التراكمات التي يعتد بها في توجيهه لمريديه، فقد عايش الكثير من الأحداث الخطيرة برفقة شيخه منها ما حصل بالمغرب ومنها ما حدث بالجزائر، وقد اتخذ منها شيخه موقفا ما، كنهي أهل طريقته على الانغماس فيها، كثورة درقاوة بقيادة عبد القادر بن

(1) المصدر نفسه.ص9.

(2) المصدر نفسه. ص89.

(3) المصدر نفسه. ص90-91.

(4) محمد بن الطيب. فقه التصوف. مرجع مذكور.ص83.

شريف في الغرب الجزائري[1]، أو ما جرى في عهد السلطان مولاي إسماعيل العلوي بالمغرب، والزج بشيخه في السجن نظرا لمشاركة مريدي الدرقاوية في الأحداث بقوة[2]. والمراد بالشيخ من كان شيخا للتربية لا شيخ تعليم بحسب اصطلاحات الصوفية.

كراهية الظهور وحب الخمول:

إضافة إلى ما تقدم يبدو أن الشيخ قد أقام حياته، وبنى مواقفه كلها على مبدأ صوفي يعتبر ركنا أساسيا تقوم عليه الطريقة الدرقاوية، ويتمثل في كراهية الظهور، وحب الخمول، حيث يصرح في كتابه في أكثر من موضع بأنه لا يريد المشيخة ولا القطبانية، فيقول في هذا الشأن: "فإن المشيخة على الناس والتقدم عليهم ليس لها شأن عندنا حتى نطلبها منك أو من غيرك، لأنني – والله– منذ مات أستاذنا – رحمه الله– ما قلت لأحد اقبض عني الورد، واتخذني شيخا، ولا أرضى أن أعلن همتي بالقطبانية، فضلا عن غيرها، لأن من كان في حضرة الحق لا مقام له"[3]. ويقول أيضا: "كن ذنبا ولا تكن رأسا فإن الضربة أول ما تقع في الرأس"[4]، ويرى أيضا أن : "الظهور يقطع الظهور"[5].

(1) الاستمدادات الربانية. ص48–51–52.

(2) المصدر نفسه. ص50–51.

(3) المصدر نفسه.ص26.

(4) المصدر نفسه. ص86.

(5) المصدر نفسه.ص52.

ونلفيه يؤكد على أهمية الخمول، فيقول: "الظهور نقمة والنفس تهواه والخمول نعمة والنفس تأباه"[1]. ومن ثمة انجرت عن هذا المبدأ مجموعة سلوكيات أبرزها رفض الانغماس في الشأن الدنيوي كطلب السلطة الزمنية أو المشاركة فيها، وتزعم الثورات التي قامت ضد الأنظمة القائمة، واعتبار كل ثورة يتزعمها درقاوي فتنة يجب الاستعاذة منها، ورفع الغطاء عنها حتى ولو كانت ضد عدو كافر، كما هو الحال مع الحاج موسى الدرقاوي الذي أعلن الجهاد ضد المحتل الفرنسي[2]، وثورة بومعزة[3]، وثورة الأمير عبد القادر في أواخرها[4].

فقد حكم العربي عطية على كل أشكال المقاومة التي أعلنها معاصروه المذكورون ضد الفرنسيين على أن الدافع الكامن وراءها حب الظهور، وطلب السلطة والجاه، ولم يُرد بها وجه الله، ودليله على ذلك فشل هذه المقاومة على الرغم من اصطباغها بصبغة الجهاد[5]، ومن ثمة رأى أنه من الحكمة اعتزال هذه الفتن، وعدم الخوض فيها، لأن القصد منها لم يكن خالصا لله، وكل ما خلا من الإخلاص مصيره الخسران في الدارين[6]. مع أن من رسائله تظهر حرصه على إحياء فريضة الجهاد وحث أهل طريقته على الانخراط فيه. وقد يبدو في هذا تناقضا مع ما أشرنا إليه سابقا من كونه

(1) المصدر نفسه. ص112.

(2) المصدر نفسه.ص49-50.

(3) المصدر نفسه.ص38.

(4) المصدر نفسه.ص39.

(5) المصدر نفسه.ص39-40.

(6) المصدر نفسه.ص50.

كان يحذر من الانخراط في شتى أصناف المقاومات ضد السلطة القائمة. ولكن ينبغي أن نعلم أنه حذر من تزعم هذه المقاومات وليس الاشتراك فيها كجنود منافحين عن كلمة الله:"فاعلم رحمك الله أني ما كاتبتكم بذلك إلا لتكونوا فيه من جملة عامة المسلمين فقط مخلصين في التوجه للجهاد في سبيل الله دون توجه إلى سلطنة أو ظهور بالأمور المخزنية"[1]، بمعنى أنه يريد لأتباعه أن يكونوا مغمورين لا يشار إليهم بالبنان حتى لا تحبط أعمالهم، ويكون جهادهم في سبيل الله.

ونلفيه على مدار صفحات كاملة يحذر المريدين من الانخراط في السلطة الحسية لأنه يرى فيها تعلقا بالدنيا، وبعدا عن المسكنة والقناعة بالله والاكتفاء به عمن سواه[2]. كما أنه أبدى رفضه المطلق لفكرة بعض مدعي المشيخة من أهل طريقته من كون الظهور وكثرة المريدين دليل على وصول الشيخ وكماله، ويستدل على ذلك بأمثلة لشيوخ طار ذكرهم في الأفاق كالشيخ مولاي علي الجمل الذي لم يبلغ على يديه سوى العربي بن أحمد الدرقاوي درجة القطبانية[3].

ويضرب العربي بن عطية الكثير من الأمثلة على صحة دعواه بشأن مساوئ الظهور ومزالقه، وذلك من منطلق ما وقف عليه بوصفه شاهد عيان. وسنكتفي ههنا بمثل واحد، ويتمثل في ثورة عبد القادر بن الشريف الذي يرى فيه بن عطية مخالفا لتعاليم الشيخ مولاي العربي

(1) المصدر نفسه.ص38.

(2) المصدر نفسه. ص25-26.

(3) المصدر نفسه.ص29-30.

بن أحمد الدرقاوي، ومحبا للظهور من خلال إعلانه الثورة ضد الأتراك. فهو يرى أنه اتخذ ضفة الملوك ويأبه بتعليمات الشيخ، وأن هذا الأخير لم يحفل به ولم يحترمه حينما قدم عليه في محلته، وكان أصحابه يعظمونه في حضرة الشيخ، ويعاملونه معاملة الملوك، فانقبض الشيخ لما رأى، وولى مدبرا فما كاد يقارب تلمسان حتى وقع ما وقع به، وما ذلك إلا جزاء خروجه على النص في رأي بن عطية[1].

وقد أضاف صاحب كتاب مرابطون وإخوان إلى ما تقدم حصول كرامة من الشيخ، ويذكر مكانها، ويتمثل في الحصار الذي ضربه بن شريف على مدينة وهران، وكان ذلك حوالي العام1222هـ(1805-1806م)، وبعد مراسلات حاول من خلالها العربي بن أحمد ثني تلميذه بن الشريف عما عزم عليه، وأخيرا قصده في موقعه، فلم يجدِ ذلك نفعا، فحمل الشيخ حفنة تراب، ورماها باتجاه الريح وصرخ كذلك يكون مصير بن الشريف، وأكدت الأحداث نبوءة مولاي العربي بن أحمد الدرقاوي[2].

وعلى الرغم من التحفظ الذي أبداه العربي بن عطية من المقاومات التي قامت في وجه الاستعمار الفرنسي في عهده، وإيثاره الهجرة، إلا أن المحتل بقي ينظر دائما إلى هذه الطريقة على أنها طريقة ثورية متطرفة متعصبة، بدليل أنها اعتقلت الشيخ عدة بن غلام الله تلميذ بن عطية في تيارت ثم أطلقت سراحه، ونظرت إليه بعين الريبة في أحداث ثورة فليتة سنة1864 م[3] .

---

(1) المصدر نفسه.ص51-52.

(2) Voir :Louis Rhinn. Marabouts et khouans Op.Ct.pp234-235.

(3) Voir : A.. Joly. Etudes sur les Chadouliyas. In Revue africaine.1906.Vol.50. p.345.

الهجرة من دار الحرب ومسوغاتها الشرعية:

آمن العربي ين عطية بفكرة الهجرة، ومارسها في حياته، إذ كانت هجرته الأولى من مسقط رأسه منطقة الشلف السفلي، وبالضبط من بلدته أولاد سيدي عمار الواقعة بحوض شلف السفلي إلى بلدة متيجة بالونشريس وكانت فرارا من سطوة الترك، وتعبيرا عن رفضه الإقامة بين ظهرانيهم وتحت سلطتهم، وخاصة بعد أن رأى بأم عينيه مظالمهم، وفتكهم بالعلماء، ورجال الطرق الصوفية، وبالأخص الدرقاويين منهم[1]. وكانت الهجرة الثانية من الونشريس نحو تونس لأن الجزائر أصبحت في نظرة دار حرب بعد أن وطئت أقدام الفرنجة ثراها، ومن ثم وجب الانتقال إلى دار الإسلام، ويورد لأجل ذلك جملة من المسوغات الشرعية كحديث رسول الله (ﷺ): "أنا بريء من كل مسلم مقيم بين أظهر الكافرين"، كما يرى أنه لا تصح مشيخة شيخ مقيم بين أظهر الأعداء[2].

وقد أشار إلى الملابسات التي أحاطت بهجرته الأخيرة إلى تونس، ولكن السؤال الذي يفرض حضوره ههنا: لماذا أمنه حاكم المدية الفرنسي، وأركبه السفينة التي أقلته من مدينة الجزائر بلا أجرة، وبذلك يكون قد سهل عملية خروجه من الجزائر؟.

---

(1) تحدث العربي بن عطية عن مظالم الترك التي عاصرها، وخاصة في عهد الباي حسان الذي فتك بعلماء المنطقة، كعبد الله بن حواء، ومحمد بن علي فرقان، ومحمد بلقندوز(1829)، ومقتل محمد الكبير التيجاني في معركة غريس(1817) وأن الباي حسان المذكور لما علم بمستقره في الونشريس عزم على ملاحقته، ولكن إرادة الله قد سبقت وانجلى الأتراك عن البلاد(لمزيد من التفصيل يراجع المخطوط. ص7-8).

(2) ينظر: الاستمدادات الربانية.ص115.

من المؤكد أن الأمر لا يتعلق بعمل إنساني بل هو سياسي بامتياز. ونحن نرى أن هذا الحاكم كان يعلم المكانة التي يتبوؤها العربي بن عطية داخل الطريقة الدرقاوية، والتي تحرص كل التقارير الاستخباراتية والدراسات المنجزة عن الطرق الدينية في الجزائر على وصفها بالطريقة المتعصبة وتوصي دائما بالحذر في التعامل معها، حتى بعد أن انكفأت على نفسها وحرمت على مريديها الاشتغال بأمور السياسة، وبالتالي فإن تسهيل خروج زعيمها من الجزائر فيه وأد لكل تمرد صوفي قد يقوده درقاوي في نظر هؤلاء، وخاصة أن منطقة المدية التي كانت تدخل ضمن مناطق نفوذ الدرقاويين، كانت مسرحا لنشاط ثوري قبل ذلك بزعامة موسى الدرقاوي المدعو بوحمار، والذي حاول دون جدوى الحصول على التأييد الروحي من العربي بن عطية[1] .

وكأني بتسهيل خروج العربي بن عطية من الجزائر من قبل المستعمر تجفيف للمنابع الروحية والمرجعية لهذه الطريقة، وتدجين لها.

قراءة في مواقف العربي بن عطية من أحداث عصره:

والقراءة التي يمكن أن يخرج بها الدارس لرسائل الاستمدادات الربانية، وخاصة فيما تعلق بموقفه من أحداث عصره، هو أنه كانت تتحكم في سلوكيات العربي بن عطية جملة مرجعيات أساسها منطلقاته الصوفية، ومن ثم نرى أنه من الظلم للرجل أن ينخرط الدارس في لحظة تاريخية ما، حتى وإن كانت فارقة، كأن ينطلق من تلك الثنائية النمطية:مع من؟ أو ضد من؟، وأخص هنا موقفه من الأمير عبد القادر. فالعربي بن

(1) ينظر: أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. مرجع مذكور.ج4.ص115.

عطية وقف موقف المؤيد لثورة الأمير، وحث أهل طريقته على الانخراط فيها كأفراد، وحثهم على الإخلاص في الجهاد، ابتغاء وجه الله، ودليل ذلك أنه أمر أشهر تلاميذه الشيخ عدة غلام الله على قبول القضاء لدى الأمير، وقد أشار أبو القاسم سعد الله إلى التقدير الذي كان يحظى به العربي بن عطية من لدن الأمير[1].

ولكن يبدو من خلال الرسائل أن العربي بن عطية قد داخله الشك في هذه المقاومة، ورأى أنها قد حادت عن الهدف المرسوم لها وأنها لم تعد جهادا القصد منه إخراج الفرنجة الكافرين من أرض الإسلام، وإنما الدافع إليها طلب السلطة والجاه، وخاصة بعدما رأى تلاحق الفتن، وتوجيه المسلم سلاحه إلى أخيه المسلم، ومن ثمة رأى أن الأسلم لدينه اعتزال هذه الفتنة وعدم الخوض فيها والوقوف مع فريق ضد آخر[2].

ونلحظ أن العربي بن عطية لم يبق عند حد الاعتزال والتزام الصمت بل إنه صرح من باب النصيحة للأمير عبد القادر أن دعاه إلى الكف عن تكفير القبائل التي تمردت عليه، ورفضت تأدية الزكاة، وخاصة بعد معاهدة ديميشيل سنة1834، ولعله بما أشار إليه من غزو العرب وتكفيرهم على حد تعبيره في الاستمدادات يقصد الفتوى التي استصدرها الأمير من علماء فاس[3].

---

(1) المرجع السابق . ج4. ص197.

(2) ينظر: الاستمدادات الربانية. ص49-50.

(3) ينظر:أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد. دراسة وتحقيق عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح. دار الغرب الإسلامي.ط1. 1996 م.

وانطلاقا من هذا النص الذي خاطب به العربي بن عطية الأمير، والذي يفهم منه تباين الرؤى واختلاف منطق الحكم بين رجل الدين ورجل الدولة، حتى وإن كان هذا الأخير صاحب طريقة صوفية، إلا أنه امتلك على رغم حداثة سنه مؤهلات القيادة ومواصفاتها، وربما لأسفاره الكثيرة التي قادته إلى الحج وبلاد الشام وبغداد في سن مبكرة من حياته ما جعله يعي الحياة بطريقة أكثر إيجابية، مما لو اكتفى بما أخذه من تصوف طرقي على شاكلة معاصريه، كما لا يمكن أن ننسى دور الاستعداد الشخصي الذي أهله لأن يعي ما غاب عن غيره.

كما يمكن الوعي بمثل هذه التصرفات ووضعها في إطارها الصحيح، إذا نحن حاولنا أن نكون متزنين في قراءتنا: فبن عطية نظر إلى جهاد الأمير على أنه طلب دنيا وجاه، والأمير سعيا منه لتوحيد القبائل على مبدأ جامع اتخذ كل السبل التي رآها مشروعة بما فيها الحمل على القبائل المتمردة ولو بالقوة في سبيل الغاية العظمى، في زمن كان فيه الولاء للقبيلة هو المهيمن، حيث انعدام التراتيبية الاجتماعية، فأساس العلاقات داخل القبيلة هو القرابة سواء أكانت حقيقية أو مفتعلة على خلاف الدولة، كما أن مفهوم الوطنية بالدلالة التي أضحى عليها مع الحركة الوطنية في القرن العشرين لم يكن قد تكرس بعد، ومعالم الوطن لم تكن بالوضوح الذي هي عليه الآن، والجامع لتلك القبائل – التي فرقها الأتراك إلى مخزنية ورعية مع ما في ذلك من توسيع لهوة الخلاف بينها– هو الجهاد لإخراج الكافر من دار الإسلام، يضاف إلى هذا الخلاف الطرقي الذي يكون قد تدخل في مثل هذه الأحوال وإن لم يكن على مستوى القادة، فإنه يظهر على الأقل في التصرفات المعزولة للأفراد.

ونلحظ أيضا أن رؤية بن عطية كانت دينية فهو يرفض تكفير المسلم مهما كانت الأسباب، مادام لم يجهر بكفره[1]، وله مسوغاته الشرعية التي لا يمكن لها أن تبرر له هذا الفعل، وقد أفصح عنها بالتفصيل في رسائله.

ونحن نلحظ أن الخلاف قد بدأ في البروز بعد معاهدة ديميشيل مما يدل على أن الثائرين لم يهضموا: أنى لمجاهد كالأمير أن يعاهد الكفار ويسالمهم، وهم قد بايعوه على الجهاد، وما دام أمر هذا الأخير قد انفرط عقده فلا بيعة في أعناقهم له، فهم بحماسهم الصوفي واندفاعهم الديني لم يكن بوسعهم الوعي بالاستراتيجيات الحربية، وإدراك كنه الهدنة الظرفية أو الظروف والمعطيات والملابسات المحيطة بالجهاد.

وتأسيسا على ما سبق فإننا نرى أنه ينبغي علينا أن نبتعد عن اللغة القضائية على حد تعبير بومدين بوزيد في قراءة هذه المرحلة الهامة من تاريخنا لأن ذلك قد يؤدي بنا إلى رفض الكثير من تراثنا الثقافي، وإنكار أعمال وإنجازات العديد من رجالات الوطن.

خاتمة:

ما نخلص إليه هو أن الاستمدادات الربانية مدونة نصية صوفية بامتياز بمرجعياتها، ومعجمها النثري الزاخر بألفاظ الصوفيين وتعابيرهم واصطلاحاتهم، وبمضمونها الفكري.

وبما أن الاستمدادات نص يمكن لنا إدراجه ضمن دائرة النصوص المنقبية، التي تحرص على التركيز على الأفعال الخارقة كالكرامات فإن

(1) ينظر: الاستمدادات الربانية. ص62.

هذا يطرح صعوبة في الإلمام بالاتجاه التاريخي لتطور الأحداث، وهذا ما لاحظناه من كثرة المرور العابر على جملة من الأحداث على الرغم من أهميتها التاريخية.

وعلى الرغم مما تقدم فإن الاستمدادات تظهر شخصية العربي بن عطية الصوفية بسعة اطلاعه التي تكشفها كثرة اقتباساته، وحرصه على نسبة المقتبس إلى أصحابه، مما يدلل على أمانته العلمية، ونلحظ ذلك في إحالة الأقوال على أصحابها، من مثل: قال شيخنا، وقال أستاذنا، أو سيدنا فلان، وكان حتى في الأقوال الجارية مجرى الحكم والأمثال يعبر عنها بقوله: كما قيل.

ونلحظ أنه كان يشير إلى ما يصدر عنه من أقوال وأراء بقوله وعندي وقلنا، فصلا لما له عما لغيره.

الإمام أبو الخيرات مصطفى بن عبد الله بن مؤمن المالكي الرمّاصي القلعي الراشدي المعسكري الجزائري

د.محند أويدير مشنان

ـ اسمه ونسبه مولده:

هو الإمام أبو الخيرات مصطفى بن عبد الله بن مؤمن المالكي الرمّاصي القلعي الراشدي المعسكري الجزائري[1].

ولا نعرف تاريخ ميلاده بالضبط، إلا أنه توفي سنة 1136هـ أو 1137هـ عن أكثر من تسعين عاما[2]، فيكون مولد قبل عام 1046هـ.

نشأته العلمية وشيوخه :

تلقى الرماصي مبادئ العلوم عن علماء بلدته وما حولها من الحواضر والمراكز العلمية في الجزائر وخارجها، وقد أشار إلى ذلك المهدي البوعبدلي بقوله: (التحق بمعاهد قلعة هوارة فمازونة وتيارت، وختم رحلته في

(1) انظر: تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (2/ 560)، إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادي (4/ 374).

(2) انظر: تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (2/ 560)، فهرس الفهارس للكتاني (1/ 507).

طلب العلم بفاس ثم القاهرة)[1]. (وختم رحلته في طلب العلم بفاس ثم القاهرة)[2].

شيوخه :

ما من شك أن الشيخ الرماصي تتلمذ على عدد من الأئمة الأعلام في الجزائر، وأثناء رحلته إلى فاس ومصر...

فمن شيوخه في الجزائر :

1 ـ والده عبد الله بن مؤمن، الذي يعتبر من فقهاء عهده، كما ذكر المهدي البوعبدلي[3].

2 ـ الشيخ محمد بن علي الخروبي القلعي، الذي أخذ عنه العقائد السنوسية[4].

3 ـ الشيخ محمد بن الشارف المازوني، روى عنه الرماصي صحيح البخاري، وهو الذي أسّس المعهد الفقهي لمازونة[5].

4 ـ الشيخ سيدي أبو زيد عبد الرحمن التوجيني الراشدي[6].

5 ـ الشيخ محمد الصحراوي، أخذ عنه الشيخ الرماصي طريق أهل التصوف[7]، وهو نزيل قلعة مامون ببلاد منداس، ودفينها[8].

---

(1) الفقيه الحافظ مصطفى الرماصي الراشدي الجزائري، للمهدي البوعبدلي ص 46.

(2) المرجع نفسه ص 46.

(3) الفقيه الحافظ مصطفى الرماصي الراشدي الجزائري، للمهدي البوعبدلي ص 45.

(4) المرجع نفسه ص 46.

(5) المرجع نفسه ص 47 ـ 48.

(6) المرجع نفسه ص 48.

(7) المرجع نفسه ص 46.

(8) المرجع نفسه ص 48.

6 ـ الشيخ عمر التراري المشرفي، وهو من أسرة المشرفي التي توارث أفرادها العلم كابرا عن كابر، وكان مقر الأسرة ومعهدها العلمي في مدينة الكرط قرب مدينة معسك[1].

ومن شيوخه في مصر :

1 ـ الشيخ أبو محمد عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني، الفقيه الإمام العلامة، شارح مختصر خليل، (ت1099هـ/ 1687م)[2].

2 ـ الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخرشي، الفقيه العلامة، له شرح كبير على مختصر خليل، وآخر صغير، توفي سنة 1101 [3].

تلاميذه :

عاد الشيخ الرُّماصي إلى بلده واستقر في مدينة معسكر، فبدأ ممارسة نشاطه في نشر العلوم والمعارف، في رباط بناه بجهده الخاص، ويمكن الجزم بأن طلبته كثيرون، ولكن لم يصلنا من أسمائهم سوى القليل:

1 ـ تلميذ لا نعرف اسمه، ولكنه ينحدر من أسرة أندلسية لاجئة إلى الجزائر، وكل ما يعرف عنه أن شيخه الرماصي قد غضب عليه بسبب مكابرته في مسألة علمية، وقد رد عليه الرماصي ردا قويا بأسلوب فيه كثير من الصرامة والشدة[4].

---

(1) المرجع نفسه ص 49.

(2) انظر: شجرة النور لمحمد مخلوف (1/ 304).

(3) انظر: المرجع نفسه (1/ 317).

(4) انظر مقاطع من هذا الرد في مقال: الفقيه الحافظ مصطفى الرماصي الراشدي الجزائري، للمهدي البوعبدلي ص 54 ـ 55.

2 ـ الشيخ محمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن، الشريف الجعدي موطنا، من عمالة الجزائر[1].

3 ـ الشيخ علي، والد الشيخ محمد أبي طالب المازوني، يستفاد ذلك مما جاء في بعض الأسانيد العلمية أن الشيخ أبي طالب المازوني أخذ بعض كتب الفقه المالكي عنه أبيه علي، عن الشيخ مصطفى بن عبد الله الرماصي، عن الخرشي والزرقاني[2].

4 ـ الشيخ محمد بن عبد الله بن أيوب المعروف بالمنوّر التلمساني دفين مصر، العلامة الأديب المسند الرحالة، روى عن الرماصي، وتوفي بمصر بعد رجوعه من الحج[3].

آثاره العلمية :

يبدو أن الشيخ الرماصي لم يهتم بالتأليف كاهتمامه بالتعليم ـ على عادة الكثير من علماء الجزائر ـ ومع ذلك، فقد حفظ لنا التاريخ بعض أعماله وهي:

1: كفاية المريد في شرح عقيدة التوحيد، فرغ منه سنة 1124هـ، شرح فيه متن السنوسي أم البراهين[4].

توجد منها نسخ مخطوطة في الجزائر، وتونس، ومصر، والسعودية، وألمانيا.

---

(1) انظر: المرجع نفسه ص 47.

(2) انظر: فهرس الفهارس للكتاني (1/ 507).

(3) انظر: المرجع نفسه (1/ 571).

(4) انظر: إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادي (4/ 374)

2 ـ حاشيته على شرح التتائي لمختصر خليل، وهي أهم مؤلفاته وبها اشتهر شرقا وغربا، حتى إن البعض يصفه بأنه: صاحب الحاشية الحاشية الكبيرة على شرح التتائي.

وتوجد منها نسخ خطية كثيرة في خزائن ومكتبات عالمية في الجزائر، والمغرب، والسعودية، ومصر، وبريطانيا

3 ـ حاشية على شرح الخرشي على مختصر خليل. توجد منها نسخ مخطوطة في الجزائر، والسعودية.

4 ـ رسالة في العتاب بخصوص مسائل فقهية، أولها: (الحمد لله، هذا ما كتبه الشيخ المصطفى الرماصي لسيدي أحمد بن عامر..). ـ توجد منها نسخة مخطوطة في المغرب.

5 ـ أجوبة فقهية، أجاب فيها عن أسئلة عالم تطوان الشيخ سيدي علي بركة، عن مسائل في مختصر الشيخ خليل. توجد منها نسخ مخطوطة في المغرب، والسعودية،

6 ـ قصيدة رثائية قالها في شيخه عمرو التراري بن أحمد المشرفي تحتوي 150 بيتا.

7 ـ تأليف في المنطق، نسبه إليه الشيخ أبو رأس[1].

وفاة الإمام الرماصي وثناء الناس عليه :

ذكر الشيخ الحفناوي أنه لم يقف على تعيين مولد الشيخ الرماصي ولا وفاته، ثم قال: (غير أنه كان في حدود أوائل القرن الثاني عشر بيقين،

(1) فتح الإله ومنته، لأبي راس الناصري ص 54.

بمستندات لا شبهة فيها ولا مين)[1]، ولكن مصادر ذكر أنه توفي سنة 1136هـ وهو ما يوافق 1724م، وقد جاوز التسعين[2]، بينما ذكر المهدي البوعبدلي أن وفاته كانت عام 1137هـ.

وقد كانت وفاته في رُماصة الواقعة في معسكر قريبا من حدود ولاية غليزان، وقبره الآن معروف.

مكانة الرماصي الفقهية :

سلك العلامة مصطفى الرماصي منهجا متميزا في حاشيته، تميز بالدقة العلمية في تحرير المسائل، واختيار الأقوال والآراء، تدل على تمكنه من فروع المذهب وأصوله، واطلاعه على مصادره ودواوينه، حتى غدت مصدرا معتمدا عند المتأخرين يرجعون إليه في تحرير مسائل المذهب، ومعرفة الأقوال المشهورة والمعتمدة.

يقول النابغة الغلاوي في سياق الكتب والمصادر المعتمدة في المذهب المالكي:

واعْتَمَدُوا حَاشِيَةً لِمُصْطَفَى عَلَى التَّتَائِي كَسِرَاجٍ مَا انْطَفَا[3]

وإن تتبعا سريعا للمكتبات الإلكترونية المتاحة كالموسوعة الشاملة، ليؤكد ما ذكره النابغة الغلاوي من اعتماد العلماء المحققين الذين جاءوا بعد

(1) تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (2/ 561)، ومما يؤكد ذلك أنه فرغ من تأليف كتابه «كفاية المريد على شرح عقيدة أهل التوحيد» سنة 1124هـ.

(2) شجرة النور لمحمد مخلوف (1/ 334)، فهرس الفهارس (2/ 507).

(3) نظم المعتمد من الأقوال والكتب في المذهب المالكي، للنابغة الغلاوي ص 121.

الرماصي على هذه الحاشية البديعة المفيدة الدقيقة، وهذه بعض المؤشرات الدالة على ذلك:

ـ اعتمده الإمام محمد بن عرفة الدسوقي في حاشية على الشرح الكبير على مختصر خليل للدردير، الشيخ محمد أحمد السنباوي المعروف بالأمير في كتابه الإكليل شرح مختصر خليل، ورمز له بحرف (ر)، الشيخ محمد بن الحسن البناني (صاحب كتاب (الفتح الرباني فيما ذهل عنه عبد الباقي الزرقانى)، ورمز له بـ(طفى)، الشيخ محمد الطالب في شرحه على المختصر المسمى (فتح الجليل في شرح مختصر خليل)، والإمام الخرشي في شرح مختصر خليل، والصاوي في حاشيته على الشرح الصغير، والشيخ في منح الجليل،وفي فتح العلي المالك، واالشيخ رشيد رضا في تفسير المنار، والشيخ محمد بن علي بن حسين مفتى المالكية بمكة المكرمة في كتابه تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية، ةالشيخ الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي في الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، نقلت عنه الموسوعة الفقهية الكويتية، وأثبتت ترجمته ضمن الفقهاء والعلماء، كما اعتمدته هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، ومجلة البحوث الإسلامية التي تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية.

صفاته وأخلاقه :

عرف الشيخ الرُّماصي بالأخلاق الحسنة والخلال المحمودة، فيه، فمن أخلاقه رحمه الله:

1 ـ الهمة العالية والحرص على طلب العلم.

2ـ سعة العلم والتضلع فيه.

3ـ الذكاء وتوقد الفكر.

4ـ المتانة في الدين والغيرة على الشرع.

5ـ احترامه للناس.

6ـ السّماحة ولين الجانب وطيب السريرة.

7ـ الثقة بالنفس وحرية الرأي.

إلى غير ذلك من الصفات والخلال التي وصفه بها مترجموه، وتظهر من خلال أجوبته ومؤلفاته.

ثناء الناس عليه :

أدرك العلماء قيمة العلامة الرماصي، فأعجبوا به، وانطلقت ألسنتهم بالثناء عليه، حتى قيل فيه: (من أذعنت له في وقته الأقران، ولم يختلف في فضله وسعة علمه اثنان)[1]، يوما وصلنا من هذا الذكر الجميل والثناء العطر ما يلي:

قال عنه أحد شيوخه: (أنت المذهب)[2] :

قال الشيخ الحفناوي: (العلامة المتفنن المحقق والجهبذ النقاد المدقق، من أذعنت له في وقته الأقران، ولم يختلف في فضله وسعة علمه اثنان وتزاحم على بنات فكره وعرائس سره الداني من أهل العلم والقاصي)[3].

(1) تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (1/ 560).

(2) المرجع نفسه (1/ 560 ـ 561).

(3) تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (1/ 560)

قال عنه محمد مخلوف: (الإمام الفقيه، العلامة المحقق، العمدة الفهامة، المؤلف المدقق)[1].

قال الدسوقي: (العلامة الشيخ مصطفى الرماصي محشي التتائي)[2].

ونختم هذه الشهادات بثناء الأمير عبد القادر الجزائري على الرماصي وعلى منطقة الراشدية وعلمائها حيث قال (وناهيك بوطن خرج منه العلامة شيخ الأسلاف محمد مصطفى الرماصي ومن حاكاه من تلامذته)[3].

الإطار الفكري والمرجعي لعلماء المنطقة:

هذه نبذة من حياة الإمام الرماصي، هذه القامة العلمية المتميزة التي قدمت قيمة مضافة في الحياة العلمية عموما وفي الفقه المالكي خصوصا، التي نجزم بأنها لم تتخرج من فراغ أو بمحض الصدفة، بل هو حلقة في سلسلة منيرة من الأئمة الأعلام الذين شكلوا عبر التاريخ الهيئة العلمية لهذه الحاضرة الثقافية، التي تتميز بجملة من الخصائص والمزايا ومنها:

1 ـ المحافظة على المرجعية الفقهية للمجتمع الجزائري خصوصا والمنطقة المغاربية عموما، وتتمل بالخصوص في التمسك بمنهج أهل السنة والجماعة في ا لتوحيد اعتمادا على مدرسة الإمام أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه، والتزام مذهب الإمام مالك رضي الله عنه في الفقه، وسلوك طريقة الإمام أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه في التصوف والتزكية. يظهر ذلك في المقررات الدراسية في المدارس والمعاهد والزوايا، التي يمكن الوقوف

(1) شجرة النور لمحمد مخلوف (1/ 334).

(2) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير على مختصر خليل (1/ 2).

(3) الفقيه الحافظ مصطفى الرماصي الراشدي الجزائري، للمهدي البوعبدلي ص 56.

عليها في كتب التاريخ والتراجم والأثبات والرحلات وغيرها من مصادر التاريخ العلمي والثقافي للمنطقة.

2 ـ روح التسامح والتثاقف والتفتح على الآراء والمذاهب، ويظهر جليا من خلال مؤشرات متعددة منها الرحلة في طلب العلم التي قادت علماء المنطقة إلى المشرق والمغرب، والتي قادت علماء المغرب والمشرق إلى المنطقة.

3 ـ مقاومة الدخيل الذي ينافي حرية المجتمع واختياراته ومبادئه، فقد قاومت المنطقة كل أشكال الاستعمار العسكري وخصوصا الإسباني والفرنسي، كما حافظت على الموروث العلمي والخصائص الثقافية من أي تأثير خارجي يغير معالمها ويلغي خصوصياتها.

4 ـ استمرار التواصل العلمي والروحي بين الأجيال، نقرأ ذلك في العدد المعتبر من الشخصيات التي أثرت مختلف مناحي الحياة في كل المراحل التاريخية لهذه المنطقة، ولذلك فقد حافظ العلماء على مشيخاتهم وأسانيدهم العلمية والروحية.

5 ـ الإسهام في إثراء الإنتاج العلمي، فقد شارك علماء المنطقة في التعليم والتأليف والتربية والإصلاح، ومن أراد التدليل على ذلك فلينظر إلى العدد الكبير من الزوايا والمدارس والمعاهد العلمية التي أسسها أهالي المنطقة، ولينظر إلى الإنتاج العلمي المتميز في مختلف العلوم المتداولة في كل فترة من فترات التاريخ.

6 ـ التزام منهج الوسطية والاعتدال، فهي مدرسة تعتمد النقل وتستثمر العقل، تحكم قواعد الشريعة وتستنير بمعاني الحقيقة، تعمر مناحي الحياة

المختلفة ولا تغفل محاسن الزهد، تتسامح مع المخالفين ولا تسمح في حقوق الوطن والدين...

7 ـ تأثير علماء المنطقة على غرار علماء الجزائر في الحواضر والمدارس العلمية الكبيرة، فكتاب أبي عبد الله المقري في القواعد يعد من المصادر الرئيسة في هذا الفن، وكتب السنوسي كانت مقررا في أهم المؤسسات العلمية في المغرب والمشرق، وكتابات عبد الرحمن الأخضري كانت وما تزال مرجعا علميا في حلقات العلم ومجالسه، وآراء الرماصي الفقهية واختياراته واجتهاداته اعتمدها علماء المذهب في المشرق والمغرب.

واعْتَمَدُوا حَاشِيَةً لِمُصْطَفَى عَلَى التَّتَائِي كَسِرَاجٍ مَا انْطَفَا

وبعد، فهذه ملامح ونُبَذٌ بين يدي هذا الملتقى العلمي الذي نتطلع فيه إلى مزيد من إجلاء هذه النقاط وغيرها، من العلماء والأساتذة والباحثين، ولكننا نرجو كذلك أن يستمر البحث والتنقيب عن هذا الموروث الحضاري الكبير الذي يستدعي جهود الجميع وعلى مختلف المستويات والأصعدة، لإحصاء هذا التراث المادي والمعنوي، ولجمعه وتبويبه، وللمحافظة علية من عوامل النسيان والتلف والضياع، ثم لإحيائه وتقديمه للأجيال، وحتى يكون عاملا من عوامل التنمية الشاملة المستدامة التي تنطق من روح الماضي وأصالته وأمجاده، مع الوعي بتحديات الحاضر وتناقضاته، واستشراف المستقبل وآماله.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التعريف بتراث الشيخ مصطفى بن عبد الله بن مؤمن الرماصي (ت 1136هـ/ 1724م)

د. حمدادو بن عمر
قسم التاريخ وعلم الآثار جامعة وهران

برز خلال العهد العثماني ثلة من العلماء بالوطن الراشدي، كانت لهم شهرة واسعة وذاع صيتهم في الآفاق؛ حيث تناولوا ضمن مصنفاتهم العلمية عدة فنون وعلوم ونبغوا فيها، بل أضافوا وأبدعوا فيها. ومن هؤلاء العلماء شخصية أبو الخيرات مصطفى بن عبد الله بن مؤمن الرماصي الملقب عند عامة الباحثين والفقهاء بمحقق الفقه المالكي.

وقبل أن نخوض في صميم الموضوع لابد من الإشارة ولو بجزء بسيط عن معرفة حياة ونشأة الشيخ مصطفى الرماصي العلمية، لننتقل بعدها إلى إبراز عدد من مصنفات الشيخ مصطفى الرماصي العلمية الطويلة منها والقصيرة.

المولد والنشأة:

ولد أبو الخيرات مصطفى بن عبد الله بن مؤمن الرماصي في حدود (1043ه/ 1634م)، وهذا وفق عملية حسابية بين سنة وفاته (1136هـ/ 1724م) وبين سنه الذي جاوز التسعين سنة. وعلى كل فهو من علماء القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. وقد كانت بلدة رماصة موضع مولده

وبها نشأ وترعرع، فحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ومبادئ القراءة والكتابة، على يد علماء بلدته ثم علماء الوطن الراشدي آنذاك، كشيخه عمرو التراري المشرفي الذي رثاه بقصيدة الذي خصّه بمرثية طويلة سيأتي الكلام عنها في موضعها. كما تتلمذ الشيخ مصطفى الرماصي على ابن الشارف المازوني. وما يمكن الإشارة إليه هو أنّنا لم نقف في كتب التراجم عن شيوخه ما عدا شيخه عمرو التراري السالف الذكر.

ونظرا لتشبعه بمعارف علماء بلدته أمثال:

1. والده عبد الله بن مؤمن الذي كان فقيه زمانه.

2. الشيخ محمد بن علي الخروبي القلعي، والذي أخذ عنه الرماصي عقائد السنوسي.

3. الشيخ محمد بن الشارف المازوني مؤسس المدرسة الفقهية بمازونة، والذي روى عنه الرماصي صحيح البخاري.

4. الشيخ أبو زيد عبد الرحمن التوجيني الراشدي صاحب تأليف عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من شرفاء غريس.

5. الشيخ محمد الصحراوي نزيل قلعة مامون ببلاد منداس ودفينها، أخذ عنه الشيخ الرماصي طريق أهل التصوف(شريعة وحقيقة).

6. الشيخ محمد عمرو التراري المشرفي، من أسرة المشارفة بالكرط.

كما تاقت نفسه إلى الاستزادة في طلب العلم؛ فرحل إلى مصر أين درس على يد كبار العلماء بها أمثال:

1. الشيخ أبـو محمد عبد الباقي بن يوسف بن أحمـد الزرقاني (ت1099هـ/ 1687م)، صاحب شرح المختصر. (الزرقاني) فقيه مالكي،

ولد ومات بمصر. من كتبه (شرح مختصر سيدي خليل) فقه، أربعة أجزاء، و(شرح العزية) ورسالة في (الكلام على إذا). الأعلام للزركلي، ج3، ص:72.

2. الشيخ إبراهيم بن مرعي بن عطية الشبراخيتي (ت1106هـ/ 1689م). الشبرخيتي إبراهيم بن مرعي بن عطية، برهان الدين الشبرخيتي: من أفاضل المالكية بمصر. توفي غريقا في النيل وهو متوجه إلى رشيد، من كتبه (شرح مختصر خليل) فقه، كبير، منه المجلدان الثالث والرابع، مخطوطان عند الشاويش في بيروت، وأجزاء في الصادقية بتونس، و(الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثا النووية. الزركلي، الأعلام، ج1، ص:73.

3. الشيخ الخرشي: الخرشي (أوالخراشي) (1011–1101هـ) هو محمد بن عبد الله الخراشي المالكي. أول من تولي مشيخة الأزهر. نسبته إلى قرية يقال لها (أبو خراش) من البحيرة بمصر. قال في التاج (خراش كسحاب) أقام بالقاهرة وتوفي بها. كان فقهيا فاضلا، من تصانيفه: (الشرح الكبير علي متن خليل)؛ و(الشرح الصغير علي متن خليل أيضاً في فقه المالكية)؛ و(الفوائد السنية شرح المقدمة السنوسية) في التوحيد. الأعلام للزركلي، ج7، ص:118.

4. الشيخ التتائي: التتائي (942هـ/ 1535م) محمد بن إبراهيم بن خليل التتائي: فقيه من علماء المالكية. نسبته إلى «تتا» من قرى المنوفية بمصر. نعته الغزي بقاضي القضاة بالديار المصرية. الأعلام للزركلي، ج5، ص:302.

5. الشيخ السنهوري: (سالم السنهوري) (945 – 1015 هـ= 1538 – 1606 م) سالم بن محمد عز الدين بن محمد ناصر الدين السنهوري المصري: فقيه،كان مفتي المالكية. ولد بسنهور وتعلم في القاهرة، وتوفي بها. له (حاشية على مختصر الشيخ خليل – خ) في الفقه، تسعة مجلدات، سماه (تيسير الملك الجليل لجمع الشروح وحواشي خليل) في الزيتونة بتونس، ومنه المجلد الأول في خزانة الرباط (851 د). الأعلام للزركلي، ج3، ص: 72.

6. علي بن زين العابدين الأجهوري (ت 1066هـ): الأجهوري (967 – 1066 هـ/ 1560 – 1656 م) علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي، أبو الارشاد، نور الدين الأجهوري: فقيه مالكي، من العلماء بالحديث. مولده ووفاته بمصر من كتبه «شرح الدرر السنية في نظم السيرة النبوية» مجلدان، و«النور الوهاج في الكلام على الإسراء والمعراج» و«الأجوبة المحررة لأسئلة البررة» فقه، و«المغارسة وأحكامها» و«شرح رسالة أبي زيد» فقه، و«مواهب الجليل في شرح مختصر خليل»، فقه، و«غايه البيان». الأعلام للزركلي، ج5، ص:13.

تلاميذه :

بعد عودة الشيخ مصطفى الرماصي من مصر إلى بلده واستقراره بمعسكر، بدأ بنشر العلوم والمعارف، في رباط خاص ضد الإسبان، وقد ذكره عبد الرحمن الجامعي شارح أرجوزة الحلفاوي التلمساني بقوله: «كنت وفدت على العالم العلامة الرواية النقاد منهل العلم الأصفى أبي عبد الله سيدي محمد المصطفى الرماصي، فوجدته يسكن بأهله بيوت الشعر قرب غابة في رأس جبل يأوي إليهم ليلا ويظل بالنهار في داره ومسجده، يطالع

كتبه ويقرئ طلبته، فسألته عن ذلك، فقال: كنا على هذه الحالة على عهد الاسبانيين خوفا منهم، فإننا كنا لا نأمن في الدور من أن يصكونا ليلا، فخرجنا لبيوت الشعر ليسهل علينا الفرار لغابة الجبل».

أمّا عن تلامذته فقد تخرج على يديه جمع كثير من التلاميذ العلماء، ومن هنا فإن نجزم على أن هناك عددا كثيرا من طلبته ممن درسوا عليه؛ غير أنه لم يصلنا من أسمائهم سوى القليل أمثال:

1. الشيخ محمد بن علي الشريف الجعدي.

2. الشيخ علي والد الشيخ محمد أبو طالب المازوني، استفاد منه في مجال الأسانيد العمية.

3. الشيخ محمد بن عبد الله بن أيوب المعروف بالمنور التلمساني دفين مصر، وقد روى عن الشيخ مصطفى الرماصي.

4. أبو عبد الله بن عبد الرحمن الفاسي.

وهناك حكايات تروى إبان مكوث الشيخ مصطفى الرماصي بمصر، خصوصا بعدما أصبح عالما وقاضيا بالأزهر الشريف، فأثناء محاولة رحيله إلى بلده الجزائر، اجتمع أعيان من علماء الأزهر حول مصير الشيخ مصطفى الرماصي؛ وعدم جعله يغادر مصر، وهذا من شأنه أن يشكّل فارغا علميا كبيرا بحاضرة الأزهر الشريف، غير أن الشيخ تمكن من الفرار.

وما يمكن الإشارة إليه أيضا خصوصا تلك الروايات التاريخية التي يسردها لنا الشيخ عبد الوهاب، أن الأستاذ مولود بلقاسم نايت بلقاسم في إحدى محاضراته ضمن ملتقيات الفكر الإسلامي، أنّ نابليون الثالث عند حملته على مصر صادر معظم مؤلفات الشيخ مصطفى الرماصي، واستنبط منها تشريعه المعروف اليوم بالتشريع النابليوني.

ومن بين المؤلفات الجزائرية المخطوطة التي تطرقت إلى شخصية مصطفى الرماصي، الشيخ محمد بن حوا في كتابه» **سبيكة العقيان فيمن حلّ بمستغانم من العلماء والأعيان**» حيث يقول:

مشائخا أئمة حفاظا متابعين علمهم أيقاظا

أولهم شيخ شيوخ العصر غرة جمع علماء القطر

خاتمة الحفاظ والنقاد شمس بذور الأقوياء الأفراد

فاتح قفل مشكلات الوصم سراج غبش الظلمات الدّهم

رئيس جمع الأقوياء الغواص **المصطفى محمد الرماصي**

إنّ هذا الوصف الجامع لخصال هذا العالم؛ إنما ينم عن مدى تضلع وغزارة علم شيخ شيوخ العصر الذي هو الشيخ مصطفى الرماصي، خلال فترة تواجد العثمانيين بالجزائر عموما وبالناحية الغربية خصوصا؛ وحروبهم الدائمة مع الاسبان. أمّا قوله: «فاتح قفل مشكلات الوصم» فيقصد بها التحقيق الفقهي في قضايا الفقه المالكي التي يصعب حلها.

تراث الشيخ مصطفى الرماصي:

أ/ في علم التوحيد:

لقد أسهم متصوفة بايلك الغرب في مجال علم التوحيد أو ما يصطلح عليه بعلم الكلام، فنجد مثلا مصطفى الرماصي يضع حاشية على صغرى السنوسي، يتناول فيها علم الكلام، بل كان من الذين حثوا على تعلمّه معرفا إياه بقوله: «علم الكلام أوثق العلوم دليلا، وأوضحها سبيلا، وأشرفها

فوائد، وأنجحها مقاصد، إذ به تعرف ذات الحقّ وصفاته، ويصرف عنه ما لا يليق به ولا تقبله ذاته، وقد شرف كل علم بحسب معلومه، وقد صنف في ذلك ما لا يحصى كثرة من الدواوين والمختصرات، وقد اعتني في هذا الزمان بمقدمة...محمد بن يوسف السنوسي، المسمّاة بصغرى السنوسي، لعظم فوائدها وبركة مؤلفها...».

هناك بعض العوامل في رأينا، تعزز اختيار هؤلاء المتصوفة لعقيدة السنوسي، تتلخص أساسا في رغبة أهل الغرب الإسلامي عموما في الاستقلال السياسي والفكري عن المشرق، وميلهم إلى الوحدة السياسية والفكرية والمذهبية. ورغبة متصوفة بايلك الغرب من تداول كتب السنوسي، خصوا ما تعلق منها بعقائد السنوسي في كتابيه الصغرى(أم البراهين) والكبرى(عقيدة أهل التوحيد والتسديد) ومختلف شروحهما.

ولعلّ من أهم المباحث التي تطرق إليها مصطفى الرماصي ضمن حاشيته، تلك المتعلقة بصفات المعاني كالقدرة والإرادة، والعلم، والحياة والسمع والبصر والكلام. وصفات الكمال لله تعالى كثيرة . استطاع السنوسي أن يرسّخ العقيدة الأشعرية في نفوس متصوفة إيالة الجزائر عموما ومتصوفة بايلك الغرب خصوصا، ويبعث فيها حياة جديدة ويمدها بدم جديد جعلها تواصل مسيرتها وتمارس هيمنتها، بالرغم من بروز بعض خصومه من معاصريه الذين عارضوه في بعض المسائل خاصة في مسألة إيمان المقلد، ورؤية المعدوم. كأحمد بن زكري التلمساني(ت.900هـ) الذي وضع منظومة محصّل المقاصد ردّ بها على السنوسي.

وعلى ما يبدو فإن مكانة الرماصي هذه لم تكن ترتبط ببراعته فحسب؛ بل إلى تعزيز العثمانيين للمذهب المالكي بالمذهب الحنفي، واعتماد هذا الأخير كمذهب رسمي للدولة آنذاك. ومن زاوية أخرى نجد أنّ إلحاح الرماصي على أهمية وضرورة تعلم علم الكلام؛ إنما هو تبرك بمؤلفها. إن هذا الاعتقاد الراسخ في أذهان المتصوفة ولّد شعورا بضرورة الاهتمام بهذه الحاشية وبمكانة مؤلفها.

ولعلّ شهرة مصطفى الرماصي هي التي مكنت حاضرة تلمسان من تبوء مكانة مرموقة، اعترف لها بها علماء بلاد المغرب العربي. حيث كان منبع علم التوحيد بشهادة ممّن ألفوا في علم التوحيد، ولعلّ من أبرزهم علماء تلمسان والمغرب الأقصى، أمثال أحمد المقري صاحب كتاب نفح الطيب الذي قال عنه: «أن سنده في علم التوحيد يتصل بعلماء الراشدية العارفين بهذا الشأن». وكذلك قول الشيخ السكتاني قاضي مدينة مراكش الذي قال في حاشيته على الصغرى حاكيا عن مصطفى الرماصي قوله: «أنّ سنده في هذا الفن – علم التوحيد – يتصل بعلماء الراشدية» واصفا إياها بأنها منبع علم التوحيد.

وممّا تجدر الإشارة إليه في هذا المقام إنه إذا ذكر مصطفى الرماصي فإنه يذكر على أنه فقيه محقق لعلم التوحيد وبه اشتهر، دون أن يذكر عالم كلامي متفنن فيه. غير أنّ هذه الإشارة – عالم كلامي – لها دلالتها وأبعادها في تقدير منزلة الرجل، «فالصغرى أو أم البراهين، إلى جانب عقيدة أهل التوحيد، وهي العقيدة الكبرى، والعقيدة الوسطى من أهم المتون التي اهتم بها متصوفة بايلك الغرب اهتماما بالغا»، وخصوصا مصطفى الرماصي.

ومن بين المآخذ التي نلحظها على كلام مصطفى الرماصي، أنه لم يذكر المنهج الذي سار عليه في تعليقه على علم التوحيد، بل دخل مباشرة في صلب الموضوع، فبدأ يبيّن ألفاظ ومعاني كلام السنوسي . ولكن الحقيقة غير ذلك فكما جرت بعض عادة الأوليين أنهم يتطرقون إلى ذكر ذلك من خلال تلك الشورحات والألفاظ والمعاني حتى يستوعبها الباحث والمهتم بدراسة التراث العلمي لمن سبق. وقد يوصف كلامه على أنه كلام تقليدي، وإنما أضاف إليه معارفه الخاصة وأسلوبه. غير أن الملفت للانتباه هو أن ضخامة تلك الحاشية « تعتبر عملا ضخما من حيث حجمها» .

إنّ حاشية الرماصي في صورتها التأليفية تشكل وجها مألوفا لنوعية التآليف التي كانت سائدة في ذلك العصر. وسنحاول هنا أن نبيّن فحوى هذه الحاشية وقيمتها وهو نوع من التآليف تداولها علماء العهد العثماني واهتموا بها.

ورغم تصدي الرماصي للتدريس بجبال الراشدية أثناء الفتح الأول لوهران عام 1119هـ/ 1707–1708م ومعاناته من خطر الإسبان، إلا أن ذلك لم يمنعه من التأليف والتمحيص والتحقيق، فنجده يخوض في مباحث علم الكلام، وهذا ما يفسّره أحد علماء فاس أثناء رحلته للجزائر وزيارته لمصطفى الرماصي وهو يدرس طلبته العلم الشرعي، قوله: « كنت قد وفدت على العالم الراوية النقاد منهل العلم الأصفى أبي عبد الله سيدي محمد المصطفى الرماصي، فوجدته يسكن بأهله بيوت الشعر قرب غابة في رأس جبل يأوي إليهم ليلا ويظل بالنهار في داره ومسجده يطالع كتبه ويقرئ طلبته، فسألته عن ذلك فقال: كنا على هذه الحالة على عهد الإسبانيين خوفا

منهم، فإننا كنا لا نأمن في الدّور من أن يصلونا ليلا، فخرجنا لبيوت الشعر لسهل علينا الفرار لغابة الجبل» .

إنّ حاشية الرماصي التي اعتمدها العديد من العلماء ممن جاؤوا بعده في مصنفاتهم، تعد إضافة علمية لواقع بايلك الغرب العلمي والفكري. فهي بذلك تعكس ذلك الواقع الذي لطالما كان منحصرا في علوم معينة.

والمتمعن في هذه الحاشية يدرك تأثر متصوفة بايلك الغرب بالمدرسة الأندلسية، فقد حاولوا إعطاء صورة واضحة عن الواقع المعيش وتدوينه ضمن مصنفاتهم. من هنا نلحظ ميزة الكتابة لدى هؤلاء المتصوفة. وكرؤية نقدية لمجموع المتون التي تمّ تناولها بالدراسة والتحليل، وهو ما جعلنا نلحظ عدم التزامهم بالإشكالية المحددة التي تمّ طرحها ضمن المقدمة مثلا، وهو أسلوب القدامى في تناول مثل تلك المواضيع.

فنرى مصطفى الرماصي قد قسّم حاشيته إلى مسائل وشرحها، وقبل هذا شرح كلام السنوسي استنادا إلى قول العلماء استنباطا من الكتاب والسنة. في حقيقة الأمر اختصار لحاشية اليوسي على شرح الإمام السنوسي مع زيادات واستدراكات، على اليوسي، ونظرا لأهميتها اعتمد عليها الرماصي في حاشيته التي اشتملت على فوائد لخصها من حاشية اليوسي .

إنّ استيعاب المضامين التي رام مصطفى الرماصي الوصول إليها، لن تتأت إلاّ من خلال الاطلاع على ذلك الكمّ الهائل من المصادر العقائدية، للوقوف على أهمية المجهود المبذول. والواقع أنّ حاشية الرماصي تطرح مجموعة من القضايا والتخريجات التي تدفع إلى التأمل، وبما يسمح به الاجتهاد من فسحة لتبادل الآراء وبسط حدود التأويل.

فمثلا حاول مصطفى الرماصي أن يشرح عقيدة السنوسي انطلاقا من شرحه الذاتي لها استنادا على معارف كان قد اكتسبها خلال تحصيله للعلم الشرعي وضمن رحلاته التي قادته إلى بلاد المشرق أين استزاد في تحصيلها وتنميتها. فتتطرق إلى مسألة صفات الله تعالى وأسمائه، وتعرضه لمسألة إيمان المقلد، ورؤية المعدوم. وهو ما دفع ببعض خصومه بمعارضته كأحمد بن زكري التلمساني(ت.900هـ) الذي وضع منظومة محصّل المقاصد ردّ بها على السنوسي.

ب/ في الفقه:

تعد تلك المؤلفات العلمية والتي كانت تهتم بالفقه المالكي عمدة متصوفة بايلك الغرب وطلبتهم. وقد كان كتاب مصطفى الرماصي القلعي[1] الذي وضع حاشية على شرح التتائي لمختصر خليل[2]، والذي أوضح من خلالها غايته من تأليفها، بعد الديباجة بقوله: «لما كان علم الفقه من أفضل العلوم بعد كتاب الله تعالى وسنة رسول الله؛ إذ به تعرف الأحكام ويتميز الحلال

(1) نسبة إلى قلعة بني راشد ببايلك الغرب. أنظر: مؤلف مجهول، جوانب من قلعة بني راشد، مخطوط خزانة البشير محمودي، البرج، معسكر، وتوجد نسخة منه بخزانة الشيخ عبد القادر بن يسعد بقلعة بني راشد بقرية الدبة. كما توجد نسخة منه مصورة بحوزة الأستاذ مختار بوعناني بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة وهران.

(2) اطلعنا على نسخ منها في كل من: خزانة الشيخ البشير محمودي، خزانة القرويين بفاس، الخزانة العلمية الصبيحية، الخزانة الحسنية الملكية بالرباط تحت رقم:2357، 3469، 3587، 4368، 5569، 7814، 8244، 8245، 8517، 8668، 8690، 8690، 8957، 10471، 11573، 12987، 13874. ونسخ أخرى بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط، تحت رقم:12456، ونسخ بمكتبة علال الفاسي بالرباط، تحت رقم: 245، ونسخ أخرى بالخزانة العلمية بالمسجد الأعظم بتازة، تحت رقم:247، 248، 695.

من الحرام. وقد صنف فيه الأئمة الأعلام دواوين لا تحصى، وأحسن ما صنف في ذلك مختصر خليل؛ إذ أقبلت عليه الطلبة غربا وشرقا، وله شرح كثيرة، وأحسنها شرح العلامة شمس الدين التتائي،[1]...وطلب مني بعض الإخوان أن أضع عليه حاشية، تبين مشكله وتحلّ مقفله، فأجبته لذلك بعد الاستخارة»[2]. ثمّ أن جل العلماء والمتصوفة عند قدومهم على تأليف كتبهم، فإنهم يستخيرون الله سبحانه وتعالى، طلبا للتوفيق والاستفادة، وهو ما دأب عليه متصوفة بايلك الغرب.

وبعد أن أوضح المؤلف في البداية الباعث على تأليفه لهذه الحاشية الطويلة على شرح التتائي لمختصر خليل، قسم هذا الشرح إلى أبواب على شاكلة مختصر خليل مثل: باب الصلاة، باب الطهارة،...الخ[3].

وعلى سبيل المثال والتنظير عن تلك المؤلفات الفقهية والتي شملت أيضا أمور الفتيا، ما كتبه الشيخ مصطفى الرماصي الذي يعتبر أحد أعمدة الفقه المالكي ببايلك الغرب، حتى أنه لقب بـ «محقق الفقه المالكي» كما ذكرنا ذلك آنفا. من ذلك قوله في مسألة بعد الحمدلة والصلاة على النبيﷺ جدت بخط الولي الصالح سيدي عبد القادر بن يسعد البرذعي ما نصه، ومن خط شيخنا وقدوتنا شيخ الإسلام وقدوة الأنام أبي عبد الله سيدي محمد بن سيدي علي أبهلول ذكر البلنسي في كتابه المسمى صلة الجمع وعائدة التذييل بموصول كتابي الإعلام والتكميل، في سورة طه عن

(1) مصطفى الرماصي، حاشية الرماصي على شرح التتائي لمختصر خليل، مخطوط خزانة الشيخ البصير محمودي، البرج، معسكر، و:1و.

(2) المصدر نفسه، و:1و.

(3) المصدر نفسه، و:9و.

قوله سبحانه «هي عصاي» ما نصّه عند نقله عن ابن عباس ما نقل، تكميل قال المؤلف رحمه الله تعالى اختلف العلماء، عود العصا من أي نوع كان، من أنواع النبات على أربعة أقوال، ولما ذكر الثلاثة قال القول الرابع أنها كانت من المقر وهو اللوز المر، أعطاها له ملك في مسيره إلى مدين، قاله بعض العلماء، وفي هذا النوع من النبات خواص تؤذن بصحة هذا القول».

إنّ هذه الفتوى تُنم عن مدى توسع مصطفى الرماصي وتحقيقه للمسألة الفقهية وفق ما يستوجبه الشرع من الكتاب والسنة، ولرفع الغبن والمشقة عن المسلم. فتراه يوضح معنى المسألة ويشرحها لغويا ومن ثم يعطي حكمه فيها، وهي عادة علماء تلك الفترة من العهد العثماني.

وهناك كتاب عبارة عن أجوبة فقهية تقع في 21 ورقة، أولها (هذا ذكر ما وقع التشكيك فيه لبعض من قصر باعه وندر اطلاعه من كلام صاحب المختصر)، أجاب فيها عن أسئلة عالم تطوان الشيخ سيدي علي بركة، عن مسائل في مختصر الشيخ خليل. يستفتيه عنها. وهي تعد قمة في تبحر الشيخ مصطفى الرماصي في مجال تحقيق الفقه المالكي على مختصر خليل، وتصحيح بعض الردود الفقهية وتعكس شخصيته العلمية.

وللإشارة فإن هذه الأجوبة نعمل على تحقيقها ودراستها؛ ومحاولة إخراجها لعامة الباحثين بغية الاستفادة منها، وتوظيفها في مجالات البحث المختلفة.

ج/ في الخطب والوعظ والارشاد:

في مجال الخطب الدينية نلحظ أن الشيخ مصطفى الرماصي يدون خطبة حول موضوع الاستسقاء، فنجده يقول: «أيها الناس؛ إن أ؛لام الغفلات

مفصحة بصدق حلول المثلات، وأن الاصرار على السيئات، يؤذن بهجوم مذموم البليات، وأن علينا من الغفلة سنة لا يوقظ هاجعها، وبينا من الأضرار آفة لا تؤمن مصارعها، وكفى بحجب قطر السماء عن الأسرار فجيرا، وظهور القحط والغلاء، بحلول الانتقام ونزول الدوائر منذرا،... اللهم لا تهلكنا بقبيح أعمالنا وأن ترحمنا برحمتك جميعا صغارا وكبارا، فأنزل علينا الغيث من السماء مدرارا، وأنت أعلم بسوء أحوالنا، فَجُدْ علينا بتبليغ آمالنا، والحمد لله رب العالمين»[1].

وهناك رسائل هي منزلة بين المنزلتين، لا هي صوفية محضة ولا هي دينية خالصة، فالخطاب فيها يتراوح بين العبادات والمعاملات وبين الأحوال والمقامات، وإذا كان الغالب فيها يتوزع ما بين الوعظ والإرشاد.

ومن بين هذه المراسلات رسالة مصطفى الرماصي- وهي طويلة - فجاءت لترد على مقتضيات الخطاب الوارد في أحد الأحكام التي أصدرها أحمد بن عامر البرجي، دون أن يستشير عالم وقته آنذاك، وإن كان الرماصي يتهم فيها صاحبه بالخروج عن دائرة الأدب وعن القاعدة المتبعة في الخطابات العلمية» أما بعد فكثيرا ما يرد عليك كتابنا فتضرب عليه صفحا، وتطوي عنه كشحا، سامحناك مرارا، ولم تهتك لك ضرارا، مع علمنا أنّ المسامحة في الحقّ مداهنة ارتكبناها، وما ينبغي لما ذلك سهل ارتكابها، إبقاء مردة الإتلاف، وحسما لمادة الشقاق والاختلاف. فلو اتصفت بالإنصاف، وجانبت التعصّب والاعتساف، لوقفت عند

(1) الرماصي مصطفى، خطبة الاستسقاء، مخطوط بخزانة الشيخ محمودي البشير، البرج ولاية معسكر. و:1و.

تخليط الأمر عليك وقفة حيران، تأدبا مع أئمة الأمة تأدب الهدهد مع سليمان».

وهذه الإشارة كافية للدلالة على أنّ المتراسلين كانوا ينطلقون في خطاباتهم من رصيد أدبي موزع بين الغايات والأهداف. إنّ رسالة الرماصي تعتمد اساسا على الحجة، ذات دلالة إيحائية، مدعمة بالدليل القاطع الثبوتي، وكل ذلك من أجل تبيان وجه الحقيقة العلمية الغامضة عن الطرف الآخر في استقراء الدليل الشرعي، ودون الرجوع إلى عالم الوقت. «..لم تسألن عن مسألة ولم تباحثن في قضية، والأئمة ترد عليّ استفتهم من تلمسان ومن المغرب الأقصى ومن الجزائر، والإخوان عن يمينك وشمالك تباحثني مشافهة وكتابة بجودة الأبحاث تلهم لتفتح أقفال المشكلات، وتلك طريقة أهل العلم..» . هذا جانب مما ورد في رسالة الرماصي، وهو في جميع الأحوال عالم الوقت بلا منازع، فاقت شهرته بلاد المشرق والمغرب.

وممّا يمكن الإشارة إليه هو أن هؤلاء المتصوفة كانت لديهم رسائل سلوكية تربوية، أدبية في بعدها الإيحائي، محملة بقيم الفن الأدبي العثماني، ففيها من السجع والكناية والمجاز، ما يشهد ببراعة المتصوف في التحبير والترسل، ولا تكاد تخلو من المواعظ الدينية ومن السلوكات التربوية.

د/ في فنون الأدب (الرثاء):

وهناك في مجال الأدب لمسة للشيخ مصطفى الرماصي نلحظها من خلال قصيدة رثائية نظمها في شيخه عمرو التراري بن أحمد المشرفي؛ والتي تحتوي على 105 بيتا. وهناك من قام بإخراجها للنور ونفض الغبار عنها

ونقصد بذلك الأستاذ الجيلالي الزاوي[1]، الذي حاول جاهدا شرح بعض كلماتها ومفرادتها المبهمة، ونشرها في المجلة الجزائرية للمخطوطات بمخبر المخطوطات بوهران. ويعود تاريخ تلك القصيدة إلى أكثر من ثلاثمائة سنة وقد حذا فيها حذو أبي حيان في قصيدته المشهورة في رثاء أبي جعفر النحاس التي تحوي نفس عدد أبيات قصيدة مترجمنا.

كما وضع عليها الأستاذ بشير بويجرة محمد دراسة وافية في حوالي 35 صفحة من الناحية الأدبية والبلاغية. ولعل مطلعها:

خليلي عوجا بي على طلل عفا　　معالمه قد غيرت ومعاهده

وأسفت عليه السافيات بعيدنا　　دقاق الحصى فانحطّ بها أجالده

وما جاء في آخرها:

وصلي على المختار من آل هاشم　　من أجله طال فرعه ومحائده

محمد المبعوث للخلق رحمة　　شفيعهم في موقف الحشر فارده

عليه صـــلاة الـلـه ثـم سلامه　　وآله والأصحاب كل مسانده

تدوم مدى الأيام ما رنحّ الصّبا　　بالأسحار رنداناعم القصر مائد

(1) الزاوي الجيلالي والمشرفي عبد الكريم، نافذة على بعض علماء معسكر، رثاء الشيخ مصطفى الرماصي لشيخه عمرو التراري المشرفي، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مخبر مخطوطات الحضارة الاسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، ع2/ 3، 2004/ 2005، ص ص:85-100.

خاتمة:

لقد حاولنا في هذه العجالة أن نبرز تراث أحدة أعمدة محققي المذهب المالكي، الشيخ مصطفى الرماصي، والتعريف به لدى عامة الباحثين والمهتمين بتراث الجزائر عموما وبتراث الناحية الغربية خصوصا؛ نظرا لما تمتاز به من كثرة العلماء والصلحاء من جهة، ونظرا للقرب الجغرافي بينها وبين حواضر المغرب الأقصى.

وقد قطعنا عهدا على أنفسنا أن نعرّف بتراث أجدادنا الأعلام وإخراج مدوناتهم دراسة وتحقيقا إلى النور، حتى يتسنى للباحثين والمؤرخين توظيفها ضمن مجال بحوثهم العلمية والاستئناس بها.

ثبت المصادر والمراجع:

- جورج دولفان، القول الأحوط في أسماء الكتب المتداولة بالمغرب الأقصى والأوسط، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 3245.

- الرماصي مصطفى، خطبة الاستسقاء، مخطوط بخزانة الشيخ محمودي البشير، البرج ولاية معسكر.

- الرماصي مصطفى، رسالة مصطفى الرماصي يوبّخ فيها أحمد بن عامر البرجي، مخطوط بخزانة الشيخ محمودي البشير، البرج ولاية معسكر.

- الرماصي مصطفى، حاشية على أم البراهين للسنوسي المسماة بصغرى السنوسي، مخطوط خزانة الشيخ محمودي البشير، البرج معسكر. ونسخة الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم: ك 2499، ضمن مجموع.

- الرماصي مصطفى، حاشية على شرح التتائي لمختصر خليل، خزانة الشيخ محمودي البشير البرج معسكر، ونسخة خزانة القرويين بفاس، ونسخة الخزانة العلمية الصبيحية، ونسخ الخزانة الحسنية الملكية بالرباط، المغرب، تحت رقم:2357، 3469، 3587، 4368، 5569، 7814، 8244، 8245، 8517، 8668، 8690، 8690، 8957، 10471، 11573، 12987، 13874. ونسخة المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط، المغرب، تحت رقم:12456، ونسخة بمكتبة علال الفاسي بالرباط، المغرب، تحت رقم: 245، ونسخ أخرى بالخزانة العلمية بالمسجد الأعظم بتازة، المغرب، تحت رقم:247، 248، 695.

- الرماصي مصطفى، أجوبة الرماصي على أسئلة علي بركة التطواني، خزانة القرويين، والمكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط، خزانة مؤسسة علال الفاسي الرباط.

- الرماصي مصطفى، قصيدة رثاء نظمها في شيخه عمرو التراري بن أحمد المشرفي، خزانة الشيخ محمودي البشير البرج معسكر.

- محمد الأعرج، تسهيل المطالب لبغية الطالب، ضمن مجموع الحسب والنسب للشيخ الهاشمي ابن بكار المعسكري، المطبعة الخلدونية، تلمسان.

ملاحق الدراسة

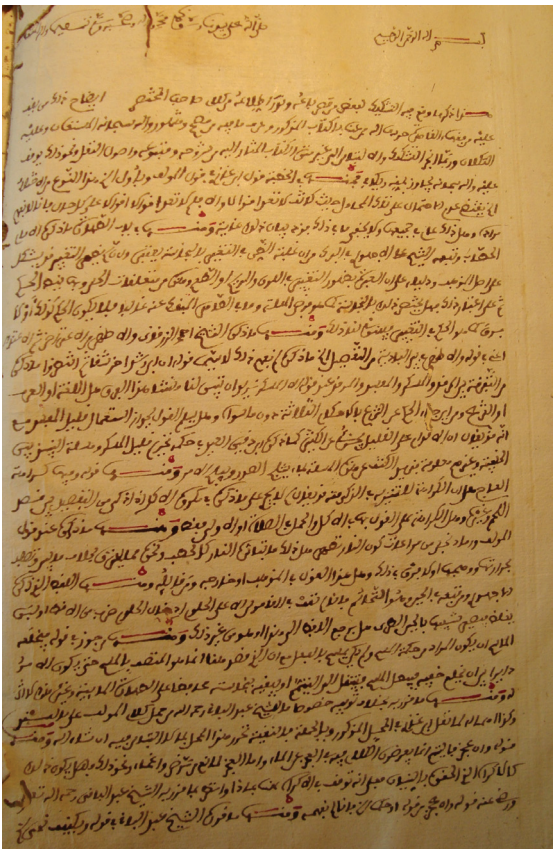

الورقة الأولى

مصطفى الرماصي(ت1724م)، أجوبة الرماصي فيما وقع التشكك فيه من كلام صاحب المختصر(ضمن مجموع)، خزانة علال الفاسي، الرباط، المغرب الأقصى.

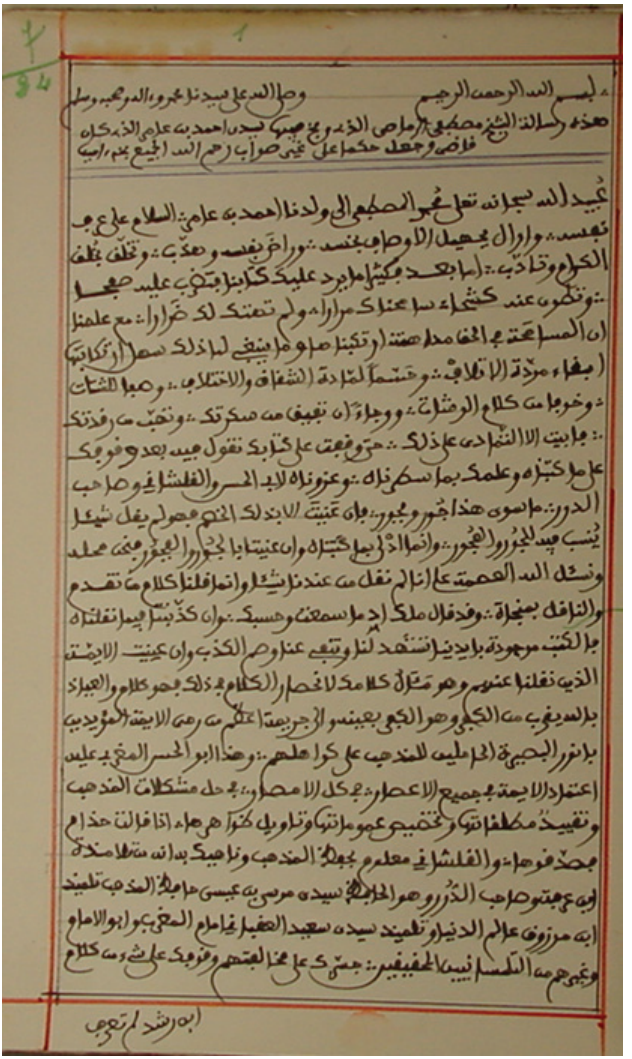

الورقة الأولى

مصطفى الرماصي(ت1724م)، رد الرماصي على أحمد بن عامر البرجي، رسالة مخطوطة، خزانة الشيخ البشير محمودي، البرج، معسكر.

الورقة الأولى

مصطفى الرماصي (ت1724م)، خطبة الاستسقاء، رسالة مخطوطة، خزانة الشيخ البشير محمودي، البرج، معسكر.

الورقة الأولى

مصطفى الرماصي(ت1724م)، حاشية الرماصي على التتائي على مختصر خليل، مخطوط خزانة الشيخ البشير محمودي، البرج، معسكر.

الورقة الأولى

مصطفى الرماصي(ت1724م)، شرح الرماصي على صغرى السنوسي، مخطوط خزانة الشيخ البشير محمودي، البرج، معسكر.

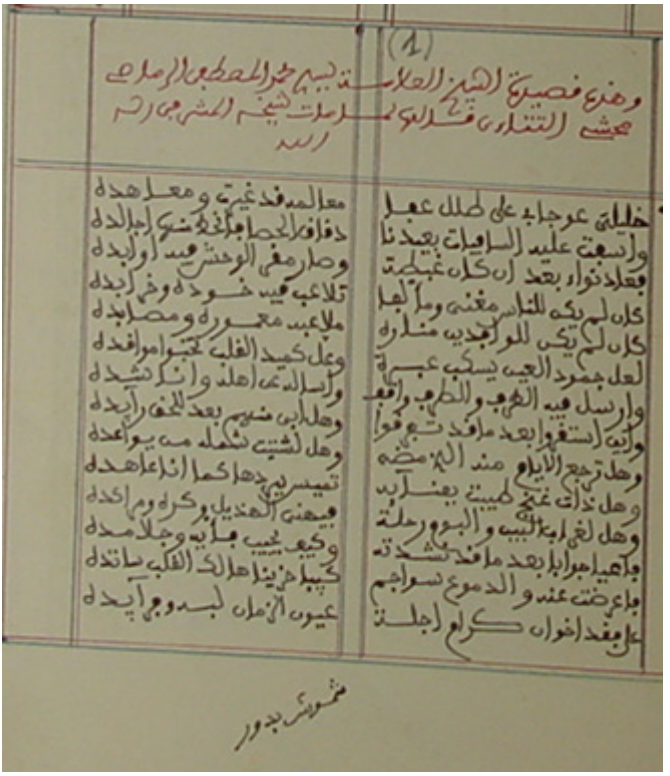

الورقة الأولى

مصطفى الرماصي(ت1724م)، قصيدة رثاء الرماصي لشيخه عمرو التراري المشرفي، ديوان أشعار، خزانة البشير محمودي، البرج، معسكر.

قراءة إبتدائية في مرثية الشيخ مصطفى الرّماصي لأستاذه عمرو التراري (القرن 18)

د. محمد بشير بويجرة

بسم الله العلي القدير الذي هو بالإجلال وبالتعظيم جدير، وصلى اللهم وسلم على خير الانام، سيد الأولين والآخرين، محمد بن عبد الله المبشر به في كتب الأولين والمقتدى به في اجتهادات المتأخرين، والمقتبس من نوره في ابتهالات أولياء الله وصلحائه إلى يوم الدين.

وبعد ،

يتوجب علينا الشكر والتقدير لمن فكروا ونظموا هذه التظاهرة المخلدة لمآثر صلحاء هذه الامة ولعلماء وطننا الحبيب وعلى رأسهم معالي وزير الشؤون الدينية غلام الله بو عبد الله الذي عهدناه دئما يقتفى آثارأجداده في تثمين عطاءات الامة الجزائرية عبر العصور المتداولة، والشكر موصول أيضا إلى السيد والي ولاية غليزان الذي تقام هذه التظاهرة في ضيافته، وكذلك إلى كل المساهمية في بلورة فكرة هذه الندوة والساهرين على تنظيمها .

ثم يجب البدء بالقول بأن موضوع دراستي هذه يتمحور حول «قراءة ابتدائية في مرثية الشيخ الرماصي إلى أستاذه عمرو الترارى». وهي القراءة

التي أقترحها على جمعكم الموقر عبر الافتراضات الثالية :

1 – عتبات النص (القصيدة).

2 – الحمولة المعرفية والروحية للقصيدة.

3 – الأبعاد الدلالية للقصيدة.

4 – جماليات التناص في القصيدة.

5 – النسق الايقاعي للقصيدة.

6 – الخصائص الأسلوبية للقصيدة .

وقبل أن أسرد على مسامعكم ما تحويه هذه الافتراضات يجدر بي أن أشير إلى فضل السيد الزاوي الجيلالي بن محمد المشرفي المعسكري لتقديمه هذه القصيدةفي «المجلة الجزائرية للمخطوطات» ضمن عدديها الثاني والثالث لسنتي 2004/ 2005، كما أجزل الشكر إلى الدكتور بوزيد بومدين الذي اقترح علي دراسة هذه القصيدة وتقديمها في لبوس نقدى أدبي يليق بها .

و بعدئذ، تبين لي بأن هذه القصيدة على الرغم منزخمها الدلالي والمعرفي والجمالي والروحي والعقائدي لم نجد (حسب علمي) من اعتنى بها وأبرز خصائصها وجمالياتها الابداعية بقراءة نقدية أكاديمية، مما شجعني على تقديم هذه الورقة حولها كعمل ابتدائي متمنيا أن تتبعه دراسات وقراءات أخرى بإذنه تعالى .

1ـ عتبات النص (القصيدة):

وجدت هذه القصيدة من عيون الشعر الجزائري إن في تعداد أبياتها

التي بلغت 105 بيتا أو في دسامة القضايا التي ألمت بها أو في رؤية الطرح الشعري الموشى بإمكانيات تأويلية رائعة جدا من طرف قراء منتمين إلى أزمنة مختلفة، كل حسب ثقافته وكل حسب أيديولوجيته وكل حسب أدواته الجمالية التي يغترف منها.

كما نجد القصيدة خلو من العنوان الرئيسي بخلاف العادة التي دأب عليه كل الشعراء، ولعل ذلك ما جعل السيد الزاوي الجيلالي يضع تقديمه لها تحت عنوان «نافذة على بعض علماء معسكر: رثاء الشيخ مصطفى الرماصى لشيخه عمرو التراري المشرفي» ثم ألحق هذا العنوان الطويل(الواسع الدلالة)بعنون صغير في صيغة إحالة(من نفائس التراث الثقافي الأصيل).

و من خلال ذلك يتمثل لدى قارئ القصيدة افتراضان؛ الأول في صيغة سؤال مؤداه: هل الشيخ الرماصى أهمل وضع عنوان لقصيدته أصلا؟... والإجابة على هذا السؤال يصبح لها شقان؛ أولهما؛ أن الشيخ الرماصى وضع عنوانا لقصيدته، لتأخذ المسألة أبعادا أخرى مثل إمكانية سقوط هذا العنوان سهوا من أحد النساخ، فتعد القضية هنا من باب السهو والخطأ، أما الشق الثاني؛ فيكم في إمكانية إسقاط عنوان النص بقصد من أحد نساخه في حقبة زمنية محددة ... وفي ذلك أيضا تطرح مجموعة من الاشكالات والفرضيات.

أما الافتراض الثاني فأجده يتمثل في الجزم بأن «الرماصي» لم يضع عنوانا أصلا لقصيدته، لتتعقد المسألة أكثر تحت إلحاح السؤال القائل: لماذا؟.و تعقد المسالة آت من مقاصد الشاعر نفسه التي يصعب الإحاطة

بها كلها نظرا لتداخل النوازع النفسية والإكراهات الموضوعية التي كانت تحيط بالشاعر حينذاك. ولكن الذي التنبيه إليه في هذه القراءة الابتدائية هي الإشارة إلى أن «عدم الشاعر عنوانا لقصيته» من الوجهة النقدية لأصحاب نظرية القراءة والتلقي، بل قد يكون ذلك ديدن النقد النسقي كله، يعتبر مزية وأسلوبا إبداعيا وجماليا ذكيا جدا من شاعر كان يعيش فترة القرن الثامن عشر الميلادي الذي أتهم، وكان يتميز فعلا في الغالبية العظمى من ابداعاته الشعرية بالانحطاط والضعف. والحجة النقدية لدى أهل المناهج النسقية تكمن في فسح المجال لقارئ النص (القصيدة هنا) لوضع عنوان له يستنتجه بنفسه من خلال فهمه للنص دون أن يفرض عليه من مبدعه(الشاعر الرماصي هنا)...و ذلك بقصد ضرورة إشراك المتلقى في إقامة علاقة ودية وحميمية بين النص ومتلقيه بعيدا عن سطوة الكاتب(الدعوة إلى موت الكاتب)بغية الزيادة في تأثيث النص وفي الإكثار من فرضيات انفتاحه على متلقيه عبر العصور ووفق إمكانية الاكتناز المعرفي لديهم، وكذا استجابة لسياقات التواجد ...

أما إن عجنا على البيت الأول من القصيدة الذي يقول فيه:

«خليلي عوجابي على طلل عفا معالمه قد غيرت ومعاهده «10»

باعتباره جزء أساسيا من عقبات النص (القصيدة) فإن القارئ يجنح نحو اعتبار النص من نفائس الشعر القديم حول الطلل والغزل...و لعل هذا الجنوح سيسمح للمتلقي ببناء عالم افتراضي للنص في ذهنه يتخيل فيه حوارا وحديثا عن عوالم القصيدة العربية قبل الإسلام المتخمةطللا... غزلا ... وسطوة فضاء القفار والبوادي...

و في كل الحالات فإن عتبات هذا النص، بصفة عامة، أجدها تساهم بقوة في بناء عالم تخيلي لدى المتلقي، مما يحرك في ذائقته القارئة آلية التأويل والافتراض ... وهما السمتان الأساسيتان في جوهر الأدب والأدبية ... ولعل في ذلك رد معتبر لمن يدعى بان الشاعرية الجزائرية قد جفت في الفترة التي أبدع فيها هذا النص ...

2ـ الحمولة المعرفية والروحية للقصيدة :

قد يبدوا للقارئ، من الوهلة الأولى، أن هذه القصيدة من نوع المراثى (غرض الرثاء) التي عرفها الشعر العربي عبر عصوره المختلفة، لكن بعد أن دققت في المسألة وجدث صعوبة كبيرة في وضعها داخل هذا التصنيف، بسبب كثافة حمولتها المعرفية المختلفة المصادر والدلالات، وكذا بسبب ارتباطاتها الروحية والوجوديةالقوية بـ (الأنا)، ليس الأنا الرماصي فحسب، ولكن الأنا الراشدي تارة، ذلك الأنا الذي دونت الكثير من كتب التاريخ تصادمه مع القادة ومع الجيوش التي لا تنتمي أصلا إل هذا الفضاء(مثل العثمانيين الأتراك)، ثم لماذا لا يكون الأنا المحمدي (نسبة إلى الرسالة المحمدية) الذي انبثقت عنه الأنوار الصوفية كلها التي كانت شمسا ساطعة على كل ربوع المغرب العربي وعلى الوطن الراشدي بصفة أخص، ثم لماذا لا يكون الأنا المسلم المؤمن بقدسية الرسالة الإسلامية والمتدبرو المتفكر في شؤون صيرورة حال المسلمين الآيلة حتما نحو الضعف والزوال قبيل 1830م تحت معاول المد المسيحي الذي استقوى بسقوط الأندلس والذي رفع أصحابه شعار وجوب إسقاط (الرجل المريض في أوربا). ولعل البيت القائل:ـ

و كيف يجيب دارس الرسم سائلامدعانةأرجاؤهومشائده؟«13»

يجيب بالتلميح إلى الكثير من هذه الإحالات..زيادة على باقي أبيات القصيدة التي وجدت كأنها مأسورة بنغمة (التضاد) بين كينونة القيم وانتشارها وفعاليتها على عهد(الشيخ عمرو التراري) وبين اندثارها وذبولها وانمحائها بعده، ويبدوا لي أن أغلبية مجموع تلك القيم تتمثل في:ـ

ـ **تيمة الوفاء**: وهي القيمة التي تبرز كحقيقة جوهرية في هذه القصيدة، وهي تصدر عن نفس عاشقة لنفس أخرى ممتلئة علما وأخلاقا ووقارا ...بغض النظر عن مكمن هذا العشق وعن مصدره، وربما، تارة، موازاة مع الجمال المادي (المرآة مثلا ...) وتارة أخرى تجاوزا له، مما يهيء للقارئ فسحة نادرة للتفتيش داخل واعيته المخيالية عن إمكانية، ولو افتراضية، لبلورة نوع من التجانس بين القيمتين النموذجتين للعشق المنتج لمعالم الوفاء ولدواعيه. ولعل العجز ـ داخل ذات الشاعر ـ عن العثور على هذا التجانس هو الذي أدى بالشاعر إل القول(وهو الشيخ الوقور والمؤمن بقضاء الله وبقدره):ـ

سأبكي عليه ماتراخت منيتي وشاكرهمادمتحياوحامده«59»

ـ **تيمة المنح والعطاء(الكرم)**: إذا كانت قيمة «الوفاء» ملازمة لأنا الشاعر (الرماصى) فإن قيمة المنح والعطاء جعلتهما القصيدة ملازمتين لأنا «شيخه» الذي تجسدت في سلوكات حياته كلها على جميع المستويات بدء من:

ـ **تيمة العطاء العلمي والكفاءة** :ا لذي نجده بارزا وصارخا في كثير من أبيات القصيدة لعل أبرزها البيت القائل:

عنى بتحقيق العلوم وضبطها فمعترفبالعجزمنجاريجادله«51»

ـ **تيمة العطاء بالعدل وإقرار الحق** : إذا كان العطاء العلمي مرتبط برغبات الذات وبإراداتها المحضة التي لا يتدخل فيها شيء خارج عنها، فإن العطاء بالعدل وإقرار الحق يتجاوز الذات المعطاءة إلى ذوات أخرى قد يكون لها وزن وقوة أو تأثير، حتى على الذات المعطاءة نفسها، لكن على الرغم من ذلك نجد الشيخ «الرماصي»يعلي من شأن هاتين الخصلتين في أستاذه حين يقول :

فيحكم بين الخصم بالفصل جازما فسيان عنده القريب وباعده «75»

و سيان عنده الحقير ومن سطى[1] فلم يخشه ولم ترعه مكايده «76»

ـ **تيمة العطاء في الأخلاق** :وهي التي تشكل ذلك المستوى من العطاء المعنوي الذي لا تبرز تأثيرات ودلائله إلا بعد أزمنة، وربما حتى بعد أجيال متباعدة... لكن في حالة أستاذ الشيخ «الرماصى» نجد هذه الخصلة قد أنشرت كسرعة البرق بين الخلائق كلهم البعيد منهم والداني، الصديق منهم والعدو، وما ذلك إلا لنزاهة المقصد ونبل المحتد، وطيبة القلب وصفاء الشرف ... ولتجلية هذا المستوى يجد القارئ كثيرا منأبيات هذه القصيدة توشى بذلك وتؤكده مثل قوله :

أقر له بالفضل والدين والتقى ونيل المعالي كل من هو ناكده «49»

3 ـ الأبعاد الدلالية للقصيدة:

على الرغم من أن قيمة القصيدة تحوم حول الإشادة بفضل وبمناقب الشيخ عمرو التراري، غير أني أجدها متخمة بأبعاد دلالية قوية توحي

(1) كذا في القصيدة، والصواب (سطا).

وتشير إلى عدة قضايا مهمة بعضها ما زال يشغل بال الإنسان منذ كان، وبعضها الآخر انتشر وبان على عصر الشاعر وأستاذه معا، وأجد أن تلك الأبعاد والدلالات كثيرة جدا يصعب حصرها، لذا سأشير، قصد الاختصار، إلى البعض منها، مثل :

ـ هول الموت وعمق تأثيره على الإنسان:

معروف أن طرفي الحياة والموت، في مسيرة الكائنات، شكلا أبدا جدلا ونقاشا قويا وحادا وتعاطت معه الديانات وتناطحت حوله الأفكار والنظريات، ليس بين الإنسان وصنوه بل حتى بين هذا الإنسان وبين ذاته (بواسطة التفكر والتدبر والتذكر) حتى تشكلت، وفق هذا النقاش، كثير منالقضايا الفلسفية أبانت وقدرت مجهود الإنسان في هذا الشأن، لكن شرائع الله التي رافقت الأنبياء والرسل قد حسمت المسألة نهائيا حولضرورة اهتمام الإنسان بمآله الحتمي المتمثل في(الموت) مما يحتم بالضرورة ذم هذا الوجود الذي ظل الإنسان يلوثه بجبروته وبطغيانه.

و على هذا الأساس نجد الشيخ «الرماصى»، في قصيدته هذه،ينشغل بالمسألة نفسها(معادلة الحياة والموت)؛ حياة أستاذه وشيخه الذي كان مثالا للجد وللاجتهاد وللتقوى، مما يؤهله للحصول على أحسن الجزاء بعد الممات، وهو المبتغى الأسمى الذي نطلبه من الله سبحانه وتعالى دائما في تجمعاتنا، لكن، على الرغم من كل ذلك، نجد الشيخ «الرماصي» وهو على ما هو عليه من التقى والزهد، يملأ قصيدته بكاء ويشبعها دلالات حزن، أوصلت قارئها، في بعض أبياتها، إلى نزوع الشاعر نحو التشاؤم أو إلى نوع من التناقض مع حديث رسول الله (ﷺ) «لا ينقطع الخير من أمتي إلى يوم

القيامة،و لعل الأبيات الكثيرة التي تزخر بها القصيدة والتي اقتنص منها البيتين القائلين :

فهدت جبال العلم شمسا منيعة

معالمه قد أقبرت ومعاهده «39»

و هدت جبال شامخات وبددت

من العلم شملا لا تؤوب أساوده»46»

كفيلة بإمكانية طرح هذه الفرضية.

ـ بعد الحب :

يبدوا لي أنه على الرغم من أن القصيدة، على الرغم من قوة طرحها، شعريا، لمجموعة من القيم الأساسية في حياة الإنسان، غير أنها لم تطرح تيمة «الحب» بصريح اللفظ، بل يجد القارئ المدقق في صلب دلالة مكوناتها القيمية تيمة الحب وهواجسه هي العرين الأصيل في نظم هذه القصيدة. بل قد يبدوا للقارئ أن هذه القصيدة تطرح «قيمة الحب» لأول مرة بشكل مخالف لما تطرحه القصيدة العربية وهي تطرح العلاقة العشقية بين المرأة والرجل أو بين الرجل والرجل(في لبوس التقدير والتعظيم) وكذلك لما تطرحه قصيدة التصوف «في مسألة عشق المتصوف لنور الحق (الرسول ﷺ) ... حيث نجدها تبنى معلما جديدا من معالم الحب المبني على ذلك التوادد وعلى وهج العلاقة العلمية والخلقية المبناة تحت خيمة التلقي العلمي والتكوين الخلقي الممتد بين الاستاذ وبين تلميذه... تلك العلاقة التي تتداخل وتتقوى في الابيات التي تقول :

يؤرقـني ذكراهم كل ليــلة أبيـت
سهير الطرف والغير هاجده «30»
و إن نمت جاء الطيف للقلب مفزعـا
يرو عني حيالهم ومشاهـده «31»
فحالي كمـن أجـرى لـنال يلقـح
لورد فخانه الذي قاصــده «32»
و إن عن لي في الدرس بحث ذكرتهمو
أذكرهم من كل معنى أكابده «33»
فأقسم لا أنسـاهم وأترك ذكراهـمو إن
طال دهري أوعرتني صاددة «34»
فلوكانوا يفدوا بالبكـاء بكيتـــهمأو المال
أعطى الطريق وتـالـده«35»

من خلال هذه الأبيات وغيرها في القصيدة يبدوا زخم قوي من الحب الممزوج بالاعتراف وبالمقدرة على ثراء العطاء، ويتجلى فيها علاقة قوية بين نموذجين إنسانيين هما ؛ الشيخ المعلم وتلميذه، ليس بواسطة التعابير والأساليب الحاملة لشحنة التمجيد والتقدير، ولكن بأساليب وبصور بلاغية قريبة من تلك التي يصطنعها الشعراء العشاق تجاه محبوباتهم(يؤرقني...كل ليلة...وإن نمت جاء الطيف...)، وذلك ما يمكن من القول بأن هذه القصيدة أضافت قيمة عشقية جديدة بين الشيخ وبين تلميذه لم تعرفها القصيدة العربية القديمة ولا قصيدة التصوف اللاحقة....

ـ بعد انعدام الكفاءات في المجتمع (الراشدية) بعد وفاة الشيخ :

إن الشيخ «الرماصي» كان يمكنه أن يبرز خصال ومحامد شيخه وأستاذه التراري دون أن يشير إلى الفئات الاخرى من العلماء ومن الشيوخ المعاصرين أو الموالين لعصرهما، لكن ما يلاحظ في القصيدة أن الشيخ أشار بالتفصيل إلى الوضع العام الذي أصبحت عليه حالة الراشدية بعد وفاة شيخه، وبخاصة في مجالات الخصال والمناقب التي امتاز بها أستاذهالمتوفي حين يقول :

على أن كل الراشدية أيمتبموت وحيد الدهر لا يأتي واحده «87»

فأقسم لا يأتي الزمان بمثلهو لا في باقي الدهر من هو والده «88»

ومما يلفت الانتباه في هذين البيتين وفي إشارات بعض الأبيات الأخرى، أن الشيخ «الرماصي» وهو الفقيه الجليل العارف بالسنة والمطلع، بدون شك، على قول الرسول(ص) «..لا ينقطع الخير من أمتي إلى يوم الدين..» قد تجاوز حدود التعبير الفعلي والحقيقي لما حصل بعد وفاة شيخه في الوط الراشدي إلى مراحب التخييل والمبالغة(الفنية والأدبية)، لأن المعروف على أرض الواقع أن العطاء العلمي للمنطقة لم ينقطع بعد وفاة «الشيخ التراري»، لكن يبدوا أن الشاعر يقصد الدفق الشعري المبني أساسا على المبالغة وعلى التهويل(التضخيم) المؤديان حتما إلى إثارة مخيال المتلقي للقصيدة.

وقد نتلمس الجزم فيما يذهب إليه «الرماصي» فيما يضيفه من أبيات مثل قوله:

فعاد خامل الذكر من بعد فقدهم

ينادي عليهم باخس السوم كاسده «21»

.....

تعاطاه من لا يستطيع سباحة

فسيان عنده الصحيح وفاسده «23»

ـ الدلالات الفنية والجمالية:

إن المدقق في هذه القصيدة يقع على نبوغ فني متميز أعطى للنص (القصيدة)، على الرغم من أن تيمته تدور على غرض الرثاء، آفاقا متميزة تغري بالناقد والدارس والقارئ بأن يتسندوا إلى معدات وآليات التذوق الجمالي في القبض على بعض الافكار والمقاصد ... تلك الافكار والمقاصد التي تبدوا كأنها مشتتة ومبعثرة بين حنايا أبيات القصيدة كلها، وذلك بسبب توظيف القصيدة لمجموعة معتبرة من الصياغات ومن الكلمات المعجمية المتداولة كلاسيكيا وحداثيا ... مثل إغراقه للنص بمجموعة معتبرة من الأسئلة والاستفهامات مثل «لعل» و«أين» و«هل» و«لوكانوا» و«هيهات» .تلك الأساليب والتعابير التي تساعد على حركية الدلالات والمعالي بما تؤطر به واعية القارئ ومخياله، وتدفعه إلى الاجتهاد في البحث عن المعنى المقصود أو الصورة الفنية المبتغاة، مثل ما نلاحظه في الأبيات التالية؛ـ

ـ السادس (لعل) :

لعل جمود العين يسكب عبرة

وعلى كميد القلب تخبوا مواقده «06»

ـ الثامن(أين) :

و أين استقروا بعد ما تفرقوا

وهل دأب منهم للحق رائده «08»

ـ التاسع (هل) :

و هل ترجع الأيام منه الذي مضى
و هل لتشتيت شمله من يعاوده «09»

ـ العاشر (هل) :

وهل ذات غنج طنبت بفنائه
تميس برديها كما أنا عاهده «10»

ـ الحادي عشر (هل) :

وهل لغراب البين والبوم رحلة
فيهنى البزيل وكره ومراكده «11»

ثم فجأة يعرج بمخيال القارئ إلى الحقيقة المرة حين يعقبها مباشرة بالبيتين التاليين:

فأعيا جوابا بعد ما قد نشدتــه
و كيف يجيب نأيه وجلامده «12»

و كيف يجيب دارس الرسم سائلا
مدعانة أرجاؤه ومشائـده «13»

وعند تتبعنا لمجمل هذه الآليات الأسلوبية يمكننا القول بأن الشيخ «الرماصي» قد أبدع فعلا في رسم حالة جمالية تبليغية (لبلاغة) راقية جدا أبان فيها ليس عن تملكه ناصية البيان والبلاغة العربية ... و لكن،أيضا، عن دراية كاملة بمقتضيات الشعرية الحقة التي تتأسس على الإيهام والجد في بناء عالم تخييلي لدى المتلقي للنص الأدبي(القصيدة)، وكأنه بذلك لم يقف عن صريح الآية الكريمة التي تقول: «..والشعراء يتبعهم الغاوون...» سورة

الشعراء، آية 224. فصدق بعدئذ كل من أشاد بمقتدرته العلمية الشرعية وبتملكه ناصية القول الفصل في ميادين الأبداع والأدب .

4 ـ جماليات التناص في القصيدة :

يعتبر التناص من الآليات التقنية والفنية التي تزين جيد النص الادبي، باعتبار هذا التناص، في حقيقة كينونته، لا يخرج عن ذكر وتوظيف لأحداث ووقائع ذات دلالات وابعاد انسانية وقعت بالفعل أو بالافتراض، ولا يستطيع أن يعبر عن كل ذلك إلاضمن آليات لغوية أو أسلوبية أو تضمينا لروافد معجمية قديمة ذات طفح جمالي متميز ...

واستنادا على هذه الخصائص والمميزات لهذا السلوك الذي يعتبر سنة متوارثة بين بني البشر منذ كان البشر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، نجد الشيخ «الرماصي» في قصيدته هذه يستفيد من بعض السياقات التليدة الاصيلة في التقاليد الثقافية العربية الاسلامية أو من القرآن الكريم، مثل قوله «... خليلي عوجا بي علي طلل عفا...» حيث نجده يصر، وهو ابن القرن الثامن عشر الميلادي على توظيف «الطلل» باعتباره منبعا ومرتعالكل شعراء العربية الفحول.

أما في مجال التناص القرآني فنجده يقول «...

يطوف به الولدان متكئا على
رفارف خضر من ديباج وسائده «96»

وهي صورة مأخوذة من آيات كثيرة من القرآن الكريم التي تتحدث عن حالة النعيم والفضل والجزاء من الله(العلي القدير)لعباده الصالحين جزاء

حسن تعبدهم وصلاحهم في الحياة الدنيا والتزامهم بامره ونواهيه مثل ما نجده في قوله سبحانه وتعالى: «يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يضدعون عنها ولا هم عنها ينزفون...».

ويضاف إلى المسائل التناصية التي ارتوت منها هذه القصيدة، تقاطع تيمة ومبتغاها مع قصيدة أبي حيان التي رثى بها شيخه أبي جعفر النحاس.[1]

5 ـ النسق الإيقاعي للقصيدة :

يلاحظ قارئ هذه القصيدة هيمنة أنواعرتمية (إيقاعية) متعددة، بعضها يطلق عليه إيقاعا داخليا، والبعض الآخر ما اعتاد الدارسون المحدثون لفن الشعر تسميتة بالإيقاع الخارجي ...

أما ما يتجلى في الإيقاع الداخلي فيبدوا واضحا في عملية التكرار المتنوعة والمتعددة لكلمات أو لأحرف أو لسياقات معينة مثل قوله في البيتين الرابع والخامس فيما يخص الجمل والسياقات :

كأن لم يكن للناس مغنا ومألفا
تلاعب فيه خوذه وخرائده (04)

كأن لم يكن للوافدين منـــارة
ملاعبه معمورة ووصائده (05)

(1) يمكن مراجعة ذلك بالتفصيل في «نافذة على بعض علماء معسكر، رثاء الشيخ مصطفى الرماصي لشيخه عمرو النزاري (من نفائس التراث الاصيل) بقلم : الزاوي الجيلالي بن محمد المشرفي المعسكري – المشرفي عبد الكريم . المجلة الجزائرية للمخطوطات، مخبر محظوظات الحضارة الاسلامية عن شمال افريقيا جامعة وهران، الجزائر، العدد 2 و3– 2004/ 2005 م، ص 85.

كما نجد إيقاع القصيدة الداخلي ممثلة في إيقاعية الأحداث والوقائع التي تبدوا متوترة ومضطربة تبعا للاضطراب النفسي الذي يعيشه الشاعر إثر المصاب الجلل الذي أصابه في شيخه، حين يلاحظ ذلك الإيقاع في الصور المتداخلة بين الشعرو بالغربة بعد وفاة الشيخ وبين الشعور بنبل المسعى الذي كان يسعى إليه الشيخ، ذلك النبل وذلك الفلاح المتجلين في ما كان الشيخ يبذله في حياته، والتي ترك انطباعا جليا وواضحا في عدمية من يخلفه في الراشدية كلها...

أما الإيقاع الخارجي للقصيدة فنجده بارزا في البحر الذي نظم به قصيدته وفي حرف (الهاء) الذي نجده في كل أواخر الكلم، والذي يطلق عليه علماء العروض(حرف الروي) من مثل «معاهده (ه)، أجالد(ه)، أوابد(ه)،خرائد(ه)، وفي كل الكلمات والمصطلحات والسياقات التي تختم بها أبيات القصيدة ... وعندئد يلاحظ القارئ كأن هناك انسجاما اتباعيا بين الحالة النفسية التي يعانيها التلميذ»الرماصي» المتسمة بالإعياء والتعب والتأوه مما أصابه بعد فراق شيخه، وبين حرف الهاء ،في الروي، الذي يدل، في مجمل سياقاته وصياغاته، على التأوه وعلى الألم وعلى المعاناة وعلى ثقل رتم الحياة وعلى اضطراب ناموس الوجود وافتقار النفس الإنسانية إلى الطمأنينة والهدوء والاستقرار..

6 ـ الخصائص الأسلوبية للقصيدة:

إن القصيدة تشيبعبقرية فذة في توظيف الأسلوب العربي الرصين مع تسخير مظاهر العصر والواقع الراشدي لهذا الأسلوب حتى جاءت وكأنها

درة من درر الثقافة الجزائرية الأصيلة مرجعا ولغة ورؤية ... وأتصور أن البحث فيجميع خصائص هذا الأسلوب وجمالياته، فيعجالة كهذه يدخل في خانة المستحيلات، مما يحتم عليالاكتفاء ببعض الإشارات التالية:

1ـ رصانة اللغة: إن القصيدة ترشح بلغة قوية ضمن نسق أسلوبي راق جدا ... بحيث يصعب على القارئ العادي أن يلم بالمعاني الحقيقية لبعض الكلمات، كما يبدوا أنه ليس من السهل إنزال بعض الصيغ فيما ينبغي لها أن تكون فيه من دلالات ومن معاني تطفئ ظمأ القارئالمعرفي والجمالي مثل كلمات : وصائده، إثباج، صالده، مصاخده، سبانده، شاكره،...

2ـ التوشيح البلاغي : لقد تلبست القصيدة لبوسا بلاغيا رائعا ...حيث نجدها موشاة بأساليب بلاغية متعددة (صورا) ومتنوعة (بيانا) ...لعل منها:

ـ تلك الصورة التي أصبح عليها الوطن الراشدي بعد رحيل الشيخ التراري، والتي أبدعتها الأبيات التالية :

وأسفت عليه السافيات بعيدنا
دقاق الحصى فانحط بها أجالده«02»

فعاد نـواه بعد أن كـان غبطة
وصار مقر الوحش فيه أوابده«03»

أو الصورة الرائعة التي يبرزهاالبيت القائل:

فإن شام برقا كان برقه خلبا
وعند اقتداح الزند كاتبه صالده«28»

ولعل منها أيضا ذلك التجانس الجميل الرائع بين تهيؤ وتخيل حالة الطبيعة، وهي في حالة اهتياج واضطراب تأثرا بوفاة الشيخ الأستاذ في قوله :

وها من خرير شمال ودبورها
ووهج الجنوب هيجته مصاخده «44»

وبين الحالة النفسية للتلميذ الشيخ «الرماصي» بعد أن فقد أستاذه في البيت القائل:

ونار الأسى في القلب أورت مضيئة
بنات الهوى والسقم فأعلم شواهده «45»

و منها أيضا هذه الصورة البلاغية المتمثلة في قوله:

ستبكيه أبكار المعاني وعونه فليس
لها من بعده من تـواده «61»

3 -توظيف الفضاء الراشدي :

من المعلوم، عند دارسي الأدب، أن للمكان وجماليات توظيفه في النص الأدبي مكانة متميزة عبر مسارات الآداب العالمية ... وذلك على أساس أن المكان الوجودي الفعلي يلعب دورا أساسيا في بلورة دينامية الشخصية (الإنسان بصفة عامة والإنسان المبدع بصفة خاصة نظرا لشدة حساسيته)[1].. ومن هذا المنطلق يمكن للقارئ أن يلاحظ اشتغال الشيخ

(1) ـ بغية الزيادة في التوسع للموضوع يمكن مراجعة كتاب « جماليات المكان» لـ«غاستون باشلار» ترجمة : غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة 1407هـ 1987م .

«الرماصي» في قصيدته بقوة على توصيف جزئيات المكان الراشدي الحقيقي والفعلي بواسطة التهويل تارة، وبواسطة إسناده أفعال الإنسان لعناصر الطبيعة الجامدة التي أبى الشاعر إلا أن يجعلها متجاوبة مع الحدث المؤلم تارة أخرى ...مما فتق مكامن البعد الجمالي ضمن جزئيات الفضاء المعيشي اليومي ... حتى أننا نجده مرة:ـ

ـ يحيل على ما اتصفت به حال الراشدية، بعد وفاة « الشيخ الأستاذ، بحالة (الطلل) في القدم وفي الخلاء وفي البؤس والحزن ... وهو توصيف استعاري تخيلي لا يعبر عن حقيقة وجودية فعلا، لكنه يحيل على بعد بلاغي جمالي.

ـ يرفع في العلياء، شخصية أستاذه المرحوم إلى مراتب العلا في مصاف البدور والأنجم ... فيقوله:

شموس بدور أنجم قد تكبدت
سماء العلا والعلم زهر نواقده «16»

ـ يبدع الشيخ «الرماصي» في تقدير ذلك التفاعل الحاصل بين شيخه»التراري» وبين مجمل الفضاءات المكانية التي كان يعيش فيها ... حين نجده يقول عن علاقة شيخه بسوق « أم العساكر «:

ليبكيه سوق أم العساكر دائما
بها قد أذاع الحق لآمن يناجده «74»

ليلاحظ القارئ أن الشاعر هنا لا يصف ما يكون قد حصل فعلا، ولكنه يلبس ،افتراضيا، حالة ما يمكن أن يكون قد حدث فعلا بأسلوب ،الأمر، أو ،التمني، في صيغة (ليبكيه) تجاوبا وإيغالا في التشديد على حالة

الحزن التي كان يعيشها الشاعر فعلا والتي كانت تبدوا افتراضا على سوق أم العساكر...

ـ ثم نجد نفس الأسلوب ونفس الخاصية الأسلوبية حين يعمد إلى إضفاء نفس الحالة على قرية « الكرط» حين يقول :

لتبك عليه قرية الكرط سرمدا
وسوحها فيها رسمه ومساجده «80»

ثم يلجأ إلى التوسع في حالة الحزن تلك على كل الفضاء الراشدي ... حين يقول :

علي أن كل الراشدية أيمت
بموت وحيد الدهر لا ياتي واحده «87»

ليلاحظ القارئ للقصيدة كأن الشاعر اعتمد منهجيا تراتبيا تفاعليا تصاعديا وفق ما تتطلبه حالته الشعورية تجاه المصاب الجلل وتماشيا مع توسع وانبساط شخصية الشيخ الأستاذ جسديا وعضويا ومعنويا وعلميا وأخلاقيا.

أما عندما يقول :

وأعجب منه الطود كيف تقله
رجال على أكدادها لا تكابده «91»

وأعجب منه البحر كيف تكنه
حفيرة قبر طبقته صياعده «92»

فيصل إلى ذروة قصوى من التخييل والتشييد الرائع لامكانات تأويلية مؤسسة على قواعد التشبيه والكناية والاستعارة (الطود/ البحر) باعتبارها

آليات بلاغية تشيد بخصال الفقيد الشيخ من الناحية المعنوية/ اللامادية تارة وتضخم من التشكل الجسمي المادي للشيخ تارة أخرى بإضفاء صفة العجز على الجبال وعلى البحار عن مجارات تمدده وتأثيرهو قوته وسط كينونة المعايشين له عامة وداخل حواس وعواطف تلميذه الشيخ الرماصي، استلهاما، ربما، من قوله تعالى «..لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله..ـ الآية...» ومن قوله جل وعلا: «.. لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي..ـ الآية...»

4 –**تلبيس القصيدة بوشاح الحزن والتشاؤم :**

ولعل هذا التلبيس هو الذي أوحى للكثيرين اعتبار القصيدة رثاءا لشيخه وأستاذه ... وهو الغلالة المهيمنة فعلا على كل القصيدة من بيتها الأول إلى آخر بيت فيها... ويبدوا لقارئ القصيدة أن لبوس الحزن والتشاؤم ذلك يمكن ملاحظته في عدة صيغ لغوية ومن وراء مجموعة دلالات سياقية وحالات شعورية تتلبس تارة الشاعر وتارة أخرى ينساب حزنها حتى على الكائنات المحيطة بالوطن الراشدي...

ولعل أقرب صورة لكل ذلك، زيادة على كل ما أشرنا إليه، هو ما عبر عنه الشاعر مرة بالإيغال بالتحسر والحزن مثل قوله :

لعل جمود العين يسكب عبرةو على كميد القلب تخبوا مواقده«6»

و تارة أخرى بالبكاء فعلا على غياب هذا الطود العلمي الشامخ كقوله:

سأبكي عليه ما تراخت منيتي

وشاكره مادمت حياوحامده«58»

و تارة ثالثة بإسناد هذا الحزن إلى الصفات المعنوية للشيخ الاستاذ فيما كان يقدمه من اجتهاد ومنكرم الاخلاق حين يقول :

لتبكيه أبكار المعاني وعونهفليس لها من بعده من تواددهِ«61»

أو إسناد هذا الحزن إلى أماكن ومقامات كان يسكنها، أو يتردد عليها، أو يدرس فيها الشيخ مثل قوله:

ليبكيه سوق أم العساكر دائما
بهاقدأذاع الحق لآمن يناجدهِ«71»

أو قوله:

لتبك عليه قرية الكرط سرمدا
وسوحهافيهارسمه وماجدهِ«80»

وتارة رابعة نجده يعبر عن ذلك الحزن **بصورة بلاغية تقابلية** تعبر عن حالات المآل المتمثل في؛ الشيخوخة والممات، مقابل حالات الماقبل المجسد في الشباب والجمال ...حين يقول عن حالتي «قرية الكرط» قبل الوفاة؛ الشباب والجمال: ـ

و كانت عروسا تجتلي في مجالها فريدة ذكرها عروبة ناهده

ثم يضيف عن حالتها في المابعد؛ الشيخوخة والضعف: ـ

فصارت عجوزا أيما ذات عاهة
منفرة لمن أتاها تواعده «85»
مشوهة شمطاء أشعث
إنما يخادنها مهلهل الرأي فاقده «86»

إلى غير ذلك من الصيغ المتعددة في تراكيبها الغوية والموحدة في توجيه المعنى نحو «تيمة الحزن والتشاؤم» التي ربما يختلف حول تجلياتها وحول أسبابها القراء والدارسون، لكني، في كل الحالات، أجدها في هذه القراءة تدخل ضمن رؤية شعرية استراتيجية كرسها الشيخ «الرماصي» لنفسه إعتمادا على مرجعيته المعرفية النقلية وعلى منجزاته الخلقية المستقاة من تجاربه، زيادة على استلهام الكثير من التجلياتالسلبية، التي رآها الشيخ، متفشية في الوطن الراشدي خاصة.[1].

ويبدوا لي أن هيمنة تيمة الحزن والتشاؤم لدى الشيخ الرماصي لم تكن آتية من إحساسه القوي بفاجعة موت شيخه»التراري» لما نعرفه في الشيخ «الرماصي» من قوة إيمان بالقضاء والقضاء وبأن الموت حق على كل ذي حياة، ولكني أتصور بأن جزء معتبرا من هذه الإحساس آت من عناية واهتمام ضلحاء الجزائر وعلمائها بما يجري في محيطهم ثم محاولة التعبير عنه من منطلق الإيمان القوي بمنهج لم الشمل وعلى نبذ التفرقة وعلى محاربة النعرات بين إخوة الإسلام والوطن... وهي المرجعية الأصيلة لدى الطرق الصوفية السنية في الجزائر التي كانت تبنى أفقها المعرفي والإيماني على وجودية زائلة وعلى حياة مندثرة، بنفس القدر الذي كانت تشيد فيه بسماقة الإيمان المطلق بجلال الله وبعظمته سبحانه وبالتوسل وبالتلفع بنورانية سيدنا محمد (ﷺ) وبخلود وبنجاعة كل فعل أو قول أو سلوك يدور في فلك هذا الاعتقاد الراسخ...

(1) لتكوين رؤية دقيقة عن الوضع العام في الوطن الراشدي على هذه القترة يمكن مراجعة ـ تاريخ الجزائر الثقافي للأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، أو كتاب : العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي؛ حياته وآثاره، تأليف . عبد الحق شرف،منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوفاف. الجزائر. 2011 م.

و وفق ذلك كله ... أتساءل الآن : هل كان الشيخ الرماصي يرثي شيخه وأستاذه أم كان يعلي من شانه ويخلده موازاة مع نعي مظاهر الانحطاط والضعف التي كانت تشمل الفضاء الراشدي حينذاك؟...

قد تتشعب الآراء حول الإجابة على هذا السؤال وعلى غيره مما يدور في فلكه ضمن هذه القصيدة، لكني أعتقد بأن لهذه القصيدة معنيان أو مقصدان مخبآن ضمن النص كله أحدهما؛ يفيد بأن القصيدة مرثية للشيخ وهو الظاهر والبارز من الخطاب العام للقصيدة، أما ثانيها فأراه يرمي إلى الإشادة وإلى الإعلاء من شأن الشيخ الاستاذ «عمرو التراري» موازاة مع رصد دقيق وتشريح بارز لأحوال الوضع العام بعد وفاة الشيخ الأستاذ[1]، ولعل ذلك ما نستشفه في البيت القائل:

ولاسيما الجهبذ والشهم عمرهم
أقر له بالسبق في العلم حاسده «48»

والذي جاء بعده مباشرة البيت الذي يشي بمكبوتات «الرماصي» ويميط اللثام عن مخبآت إحباطاتهالتي أفرزها الوضع العام والذي يقول فيه:

فعاد خميل الذكر من بعد فقدهم
ينادى عليهم باخس السوم كاسده «21»

ولعل ذلك ما يؤكد ويثبت أن للشيخ «الرماصي» قدرة وموهبة شعريتين تطال نفس القدر والمكانةفيالقدرات العلمية الأخرى التي تحدثت الكثير

(1) وحينئذ تصبح القصيدة لا تتلبس اللبوس الرثائي وحده، ولكنها تصبح قصيدة معبرة عن حال وعن وضع عام كان يتبرم منه الشيخ «الرماصي» وكان يمقته حتى جاءت وفاة شيخه ففتحت المجال للتعبير الشعري عن ذلك المقت وذلك الرفض..و لعل قوة النص ودسامته تعبر عن ذلك وتؤكده...

من المصادر على اتصافه بها.

ولعل كل ما تعرضنا له في هذه الورقة ينبئ عن ذلك كله إتكاء على ما ذهب اليه «ميكائيل ريفاتير» في قوله : ـ

«.. إن الشعر الرفيع في كل زمان وفي كل الآداب الانسانية لا يود أن يبوح بما يريد أن يقول، وعلى القارئ والمتلقي أن يبحثا عن الدلالة الحقيقية للشعر بعيدا عن القصد القريب ...[1] ويسنده أيضا ما قاله « جون كوهين» من « ...أن الشعر يجب أن يتموقع في منتصف الطريق بين الفهم وعدم الفهم [2]. وذلك على اعتبار أن «القارئ/ المتلقي» الافتراضي لهذه القصيدة سيجد صعوبة جمة في تحديد مقصد واحد محدد أو في الميل جهة معنى واحد دقيق، مما يفرض حولها تعدد للقراء بغية استلال المعاني الكثيرة المخبأة وسط كل بيت من أبياتها الـ (105).

و في الأخير ...أرجو أن تحقق هذه القصيدة من طرف ألمحققين لأني، ربما، لاحظت بعض الأخطاء الناتجة عن النقل (النسخ) ... مثل «**عنده**» ... في البيت الذي يقول :

فريد وحيد الدهر واسط (**عنده**)
وخاتمة التحقيق قطعا ورامـده»53«

حيث أعتقد أن الكلمة الصحيحة المقصودة في البيت هي «**عقده**» تماشيا مع معنى البيت ودلالته...

(1) الأدب والواقع (الوهم المرجعي ..1982)

(2) جون كوهين «بنية اللغة الشعرية، 1966، ص 100.

ومثل كلمة « **عونه**» في البيت القائل:

ستبكيه أبكار المعاني و(**عونه**)

فليس لها من بعده من توادده «61»

حيث أعتقد أن الضمير في «**عونه**» يجب أن يكون مؤنثا (**عونها**) تماشيا أيضا مع صيغة التأنيث وما يلتئم مع معنى البيت.

وكذلك كلمة « **يخبطها** « في البيت القائل:

وتندبه إذا لم تجد لها كفأها

(**فيخبطها**)من بعده وتعاقده «62»

حيث أرى بأن الصواب هو « **فيخطبها**» حتى تتماشى هذه الجملة مع المعنى المقصود في البيت...

وكذلك كلمة « **ذللته**» في البيت القائل:

وكم من عويصة (**ذللته**) دروسه

فينقاد إليه ويثبت شارده «65»

التي أجد أن الضمير في « **ذللته**» يجب أن يكون مؤنثا « **ذللتها**» حتى يعود على «عويصة» المؤنثة ...

إلى غير ذلك من الكلمات والتراكيب التي استبعد أن يخطئ فيها مبدع هذا النص الرائع في معانيه وفي دلالاته وفي أبعاده وفي أناقته اللغوية والبلاغية والجمالية، مما يجعلني أتأكد، ثم أؤكد بأن الذين يقولون بأن اللغة العربية والآداب عرفت انحطاطا وضعفا في الجزائر في الفترة التي سبقت الاحتلال الفرنسي إلى الجزائر سنة 1830، إما لم يعرفوا شيئا عن حقيقة الثقافة الجزائرية، وإما أنهم يخدمون مقاصد وأجندات تخدم أبعاد تهميش وتخديش الهوية الوطنية الجزائرية، وتشكك في العمق الثقافي الوطني

الاصيل في الجزائر تحضيرا لقولهم؛ إما، بأن الأدب الرفيع والأدبية الحقة لقننا إياها المستدمر بواسطة لغته وباسم حضارته ... وإما بغية التاكيد على أن ضعف اللغة العربية في الجزائر في الفترة ما بين 1830 و1962 لم يكن يسبب محاربة المستدمر لها طيلة قرن وربع القرن من الزمن، بل إن اللغة العربية كانت ضعيفة في الجزائر قبل احتلال هذا المستدمر لها إلى، مما يبرئ، في نهاية المطاف، المستدمر من جرائمه الثقافية والحضارية المرتكبة في حق هذه الأمة الأبية التي استعصت على مجموع الغزاة عبر العصور والأزمنة.

وبالله التوفيق والسداد

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

المقاوم الصوفي سيدي لزرق بلحاج زعيم ثورية 1864
قراءة شاملة في كتاب سيدي لزرق بلحاج
للكاتب محمد مفلاح

د. خليفي سعيد
المركز الجامعي لغليزان

يعد كتاب سيدي لزرق بلحاج من الكتب النادرة، كونه يتعرض ويعرض لشخصية ثورية مقاوِمة تكاد تكون مغمورة، يُعرف عنها إلا كونها تتعلق بشخص سيدي لزرق بلحاج الرجل الصالح المتصوف صاحب الكرامات والمقامات، إلا أن الجديد الذي كشفه هذا الكتاب، هو إفصاحه عن ثورة شعبية هزت كيان المستعمر الفرنسي في يوم من الأيام، وبات يحسب لها ألف حساب، لكن الغريب في الأمر، كما يرى مؤلف هذا الكتاب، هو أننا لا نجد لهذا الثائر أيّ معلم من معالم هذا الوطن، وقد طال النسيان هذه الثورة في كتب الناشئة المقررة لتلاميذ المدارس والثانويات . لكن الجزائر تظل تسجّل البطولات والإنجازات بفضل أبنائها البررة عبر تاريخها الممتد، ومن هؤلاء الكاتب محمد مفلاح ابن مدينة غليزان، الذي عرفناه، روائيا وقاصّا منذ سبعينيات القرن الماضي، وهاهو، ومنذ سنوات يلج عالم الكتابة في مجالات أخرى مثل التاريخ والتراجم والتراث الثقافي، الخاص بمنطقة غليزان تحديدا.

كتاب سيدي لزرق بلحاج :

كتاب من الحجم المتوسط (150) صفحة، صدرفي طبعته الأولى عن دار هومة سنة 2005، وأعيد طبعه سنة2009 عن دار المعرفة، لونه أخضر، عنوانه الرئيسي سيدي لزرق بلحاج، مكتوب باللون الأحمر، التاريخ 1864 باللون الأبيض، أما رائد ثورة، وبقية المعلومة فقد كتبت باللون الأسود، للدلالة على الألوان الوطنية الثلاثة الأحمر، والأخضر والأبيض، أما الأسود فهو غضب الثوار والمقاومين ورفضهم للمستعمر وعلى رأسهم رائدهم «سيدي لزرق».، يحتوي خمسة (5) فصول .

يضم الفصل الأول حياة سيدي لزرق بلحاج، ونشأته ونشاطه العلمي والصوفي، ورحلته إلى المشرق وجهاده.

بينما فصله الثاني فقد اهتم بالظروف الذي أحاطت بهذه الثورة المباركة بداية من الانتفاضات التي خاضتها منطقة غليزان ضد الغزو الإسباني ثم ضد بايات وهران، وبعد ذلك الاحتلال الفرنسي منذ أن وطئت قدماه أرض الجزائر سنة 1830م.

أما الفصل الثالث فقد تناول الوضع العام في القرن التاسع عشر الميلادي، وكذا الحديث عن ثورة سيدي لزرق بلحاج، أسبابها وأهم المعارك التي خاضها هذا البطل إلى غاية استشهاده يوم 05/ جوان/ 1864م.

بينما الفصل الرابع فقد عنى بالحديث عن نتائج هذه الثورة، أهمها استمرار المقاومة بقيادة سيدي عبد العزيز خليفة سيدي لزرق بلحاج، ثم زيارة نابوليون الثالث لمدينة غليزان يوم 21 جوان 1865 م، والتي واجهها سكان المنطقة بمظاهرة شعبية ضخمة رافضة للاحتلال جملة وتفصيلا. أما

الفصل الخامس والأخير، فقد خصص لصدى هذه الثورة وتأثيرها على الصحافة والكتاب والمؤرخين والشعراء، وقد ذيّل هذا الكتاب بملحق ضم صورا وخرائط ورسائل ذات مرجعية تاريخية، تؤكد قداسة هذه الثورة وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على مسار المقاومة الجزائرية، منذ عهد الأمير عبد القادر إلى غاية اندلاع ثورة التحرير المباركة التي توجت باستقلال الجزائر في الخامس جويلية 1962م، والتي نحتفل هذه السنة بذكراها الخمسين، ونجتمع اليوم في هذه الندوة المباركة في إطار الحتفالات المخلدة لذكراها.

أما المصادر والمراجع المعتمدة في هذا الكتاب فقد كانت متعددة ومتنوعة، ولم تقتصر على الكتب العربية، بل استعان الكاتب بمجموعة من المؤلفات الأجنبية التي قاربت العشرين كتابا، بالإضافة إلى مذكرات الضباط الفرنسيين الذين أدهشتهم هذه الثورة وبطلها الشجاع سيدي لزرق بلحاج، مما زاد هذا الكتاب أكثر مصداقية وثراء.

سيدي لزرق بلحاج وثورته المباركة:

قبل أن يكون سيدي لزرق بلحاج قائدا ثوريا ورجلا حربيا، فهو متصوفا وشيخ زاوية، ولد سنة 1809م. بدوار الحمومية ببلدية وادي السلام ولاية غليزان، وتزوج من فاطمة بوشيبة بنت عدة بوزيان وهي من عرش أولاد سيدي بخدة والتي رزق منها بنت واحدة، ويقال أنه رزق منها بولدين أيضا.

وينحدر نسبه الشريف من العالم الجليل والولي الصالح والقاضي الشهير «سيدي علي بن يحي» من ذرية الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وفاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهو من قبيلة «فليتة» التي قاومت الاحتلال الفرنسي منذ دخوله الجزائر بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري ثم الشيخ «بومعزة « والتي تستقر بالجهة الجنوبية الغربية لمدينة غليزان وقد كانت هذه الثورة امتدادا واستمرارا لثورة الأمير عبد القادر ومقاومة الشيخ بومعزة.

تربّى سيدي لزرق في أجواء الصوفية، وحب العلم والفروسية، فتعلم القرآن والعلوم الدينية، كما أخذ بعض معارفه من علماء المشرق العربي أثناء سفره إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج حتى اشتهر «برفيق الحجاج» وقد استفاد من هذه الرحلة المباركة كونها سمحت له بالإطلاع على الأوضاع السائدة في العالم الإسلامي مما دفعه أكثر إلى الإيمان بضرورة الجهاد وتحرير الأرض من هذا المحتل الغاشم .

وقد ولي مهمة القضاء في عهد الأمير عبد القادر، نظرا لمكانته الكبيرة بين الناس، إلى يومنا هذا حيث تقام له وعدة سنوية كبيرة. لقد نشأ سيدي الأزرق بلحاج في هذا الجو الصوفي الثوري إلى أن أصبح رجلا يتمتع بسلطة معنوية كبيرة، فالتف حوله سكان منطقة غليزان، ولما أعلن الثورة ضد المحتلين الفرنسيين ساندته كل قبائل المنطقة وطرقها الصوفية، ومنها خاصة القادرية، والدرقاوية، والسنوسية والرحمانية والطيبية.

عندما احتلت فرنسا بلادنا، كان سيدي الأزرق بلحاج قد تجاوز عمره العشرين سنة، وعاش بحماس الشباب في قلب المقاومة الجزائرية المسلحة ضد العدو الفرنسي المغتصب، ومنها ثورة الأمير عبد القادر التي احتضنتها منطقة غليزان منذ الإعلان عنها، وقد عايش سيدي الأزرق بلحاج ثورة أخرى عرف أبناؤها كل أنواع البطش والإرهاب وهي ثورة الشيخ بومعزة التي انطلقت في منطقة الظهرة.

لاشك أن مشاركة سيدي الأزرق بلحاج في أحداث ثورتي الأمير عبد القادر والشيخ بومعزة أكسبته التجربة التي مكنته فيما بعد من قيادة الثورة ومواصلة الكفاح ضد الاحتلال الفرنسي.

وفي هذه الفترة المتميزة بالتحولات الجذرية والقرارات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية المتلاحقة، ثارت عدة مناطق من البلاد ومن بينها منطقة غليزان التي انطلقت من ترابها ثورة سيدي الأزرق بلحاج، والمعروفة أيضا بثورة فليتة .وانتشرت هذه الثورة في منطقة غليزان وفي بعض المناطق التابعة لتسمسيلت، وتيارت، ومعسكر ومستغانم...

وثورة سيدي الأزرق بلحاج، من الثورات التي خاضها أبطال الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وكان على رأسها سيدي الأزرق بلحاج الذي كان له دور بارز في المقاومة المسلحة فهو من الزعماء الجزائريين الذين جمعوا بين القيادتين : الروحية والدنيوية، إذ كان رجل علم، ومقدم طريقة صوفية، وكان أيضا قائدا للثورة التي أفزعت جنرالات الاحتلال الفرنسي ومن بينهم الجنرال «لاباسي» الذي حاربها بوحشية.

ولما اندلعت ثورة سيدي لزرق بلحاج انضمت إليها قبائل منطقة غليزان ومنها قبائل زمورة، والمطمر، وعميموسى، ووادیارهیو...

كما أسهم هؤلاء الثوار في دعم ثورة أولاد سيدي الشيخ المندلعة في بداية 1864م. ويذكر بعض المهتمين بتاريخ منطقة غليزان أن ثورة سيدي الأزرق بلحاج اندلعت في 11 مارس 1864م، وانطلقت معاركها الأولى من

«الحمومية»، ثم انتشرت بضواحي منداس، وزمورة، ويستندون في ذلك إلى تقرير ضابط فرنسي يدعى «دارمنياك»

كان قد شارك في محاربة ثورة سيدي الأزرق بلحاج. وقد شهدت معارك كثيرة نذكر منها معارك 12–13 ماي 1864 م على طابور العقيد لاباسي الذي سهل تحرير زمورة يوم 14 ماي 1864 بعد أن فر منها المعمرون.

– معارك الرحوية ابتداء من يوم 13 ماي 1864 م التي لم يلتحق الجنود الفرنسيين بها إلا بعد وصول النجدات العسكرية من مستغانم وفرنسا، وتوجهها إلى الرحوية ودخولها يوم 08 جوان 1864 أي بعد تأكدهم من استشهاد سيدي لزرق بلحاج في معركة «دار سيدي بن عبد الله « يوم 05 جوان 1864 م على يد الجنرال «روز» في هذه المعركة التي جرت على ضفة وادي «مناصفة» بمنطقة دار سيدي بن عبد الله.

ولكن الثورة لم تتوقف باستشهاد هذا البطل بل استمرت حتى بعد نفي خليفته سيدي عبد العزيز، ولذلك تعتبر كل ثورة عرفتها بلادنا، استمرارا للثورات التي سبقتها، وفي هذا المعنى يقول أبو القاسم سعد الله إنه من الخطأ دراسة كل ثورة أو مقاومة على حدة، وكأنها واقعة في بلاد متباعدة، مؤكدا على تناول الانتفاضات بشكل متسق، لأن هدفها الأول هو تحرير البلاد من الاحتلال الفرنسي، فثورة أولاد سيدي الشيخ هي استمرار لثورة الجنوب (محمد بن عبد الله) واستمرار لثورة سيدي لزرق الفليتي.

وضمن هذه الرؤية الشاملة في دراسة المقاومة المسلحة، كتب عن ثورة أولاد سيدي الشيخ ما يلي: «لم تكن ثورة سيدي سليمان بن حمرة معزولة فقد أيدتها أعرش الصحراء، وكذلك أعرش حميان والأحرار، وفليتة.

وكان قائد الأحرار هوالحاج قدور بن الصحراوي الذي كان يحكم بلقب الآغا، وهو من زعماء أولاد سيدي خالد الغرابة الذين كانوا يتبعون الطريقة الطيبية. وكانت فليتة برئاسة الشيخ سي الأزرق بلحاج.

وخير ما نختم به هذه المداخلة حول هذا الكتاب، ماجاء في تقديم الأستاذ عز الدين جلاوجي، الـذي قال إن كتاب سيدي لزرق بلحاج جاء ليسد فراغا كبيرا في المكتبة الجزائرية والعربية، وذلك لأنه أضاء ظلاما ضرب طويلا على هذه الشخصية العظيمة أضاء كل ماساهم في بنائها وتنشئتها، خاصة الأثر الصوفي الذي كان عميقا، وعلى هذه الثورة الكبيرة التي كانت في حقيقتها امتدادا لثورات سيدي فرج وأحمد باي والأمير عبد القادر، ولم تنطفئ باستشهاد رائدها ومفجرها، بل استمر أوارها بعد ذلك ليحرق بلهيبه الاحتلال الفرنسي، وليؤجج نفوس الجزائريين إباء أنفة وتمردا، فكانت ثورة المقراني وبوعمامة حتى ثورة أول نوفمبر المجيدة التي أعادت للجزائر سيادتها .

إطلالة عن الوقف بمازونة
خلال الفترة العثمانية

أ.موساوي مجدوب. أ.بن كرفة فوزية
– المشرية –

عرفت مازونة كغيرها من مدن الجزائر وقراها حركة وقفية واسعة خلال فترة الحكم العثماني، لأنها تعبر عن إرادة الخير والتضامن في الإنسان المسلم، فهي تندرج ضمن الصدقات الجارية التي وُرد ذكرها في حديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انقطَعَ عَمَلُه إِلا مِن ثلاثة : صَدقةٍ جَارية، أو عِلم يُنتفَع بِه، أو وَلد صَالح يَدْعُو لَه »[1]

أغراضها نبيلة وكثيرة بمازونة، كالعناية بالعلم والعلماء والطلبة والفقراء والعجزة واليتامى وأبناء السبيل، والعناية بالمؤسسات الثقافية والدينية من مدارس ومساجد وزوايا فغرضها خيري بالدرجة الأولى لهذا نجد الواقفين بمازونة لا حصر لهم بجنس أو طبقة أو مذهب، فالكل شارك فيها خاصة الأثرياء ومتوسطي الحال أو من الموظفين السامين في البايلك، ومن الصعب حصر أنواع الوقف لكثرتها منها الأملاك العقارية، الأراضي

(1) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري(ت 261هـ)، **صحيح مسلم المسمى الجامع الصحيح**، اعتنى به وراجعه هيثم خليفة الطعيمي، الحديث رقم 4223، – باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته–، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1424هـ – 2004م، ص 619 .

الزراعية، الحقول والبساتين، عيون وآبار المياه، الدكاكين، الحيوانات من ماشية وأبقار...[1]

كما أن الحكومة المركزية بدار السلطان لم تبخل في دعمه وتقويته خدمة لأغراضه السابقة الذكر، وقد شمل عدة ميادين كبناء الكتاتيب أو ترميمها وتحبيس قطع أرض لفائدة المؤسسات الدينية وإعانات المعوزين من القائمين بخدمات لفائدة المدرسة[2].

ومن المؤكد أن مازونة ازدهر فيها الوقف بنوعيه الخيري والأهلي، لكن قلة المصادر يجعل معالجة هذا الموضوع شاقا ومتعبا.ورغم تنقلنا إلى مدينة مازونة لم نجد أثرا للمصادر التي تتكلم عن الوقف بها، فلم نجد ولا وثيقة واحدة تخدم موضوعنا.

ولا نعتقد أن هذه المصادر منعدمة بقدر ما هو الوعي منعدم واللامبالاة وعدم إدراك قيمة تلك المصادر في كتابة تاريخ بلدنا، ومنه الخسارة العلمية التي يتحمل مسؤوليتها الأشخاص الذين حجبوها عنا قصد خدمة البحث العلمي لا غير.

أما بخصوص المركز الوطني للأرشيف والذي بدورنا تنقلنا إليه، فما لمسناه من خلال زيارتنا العلمية أن أغلب الوثائق الموجودة به، والخاصة بالوقف تخص دار السلطان مدينة الجزائر وضواحيها، بينما القليل منها باقي جهات الجزائر الشرق والوسط والغرب.

---

(1) ناصر الدين سعيدوني، **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)**، م. و. ك، الجزائر، 1984م، ص ص 153 – 154. أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي (1500 – 1830)**، ج 1، ط 1، 1998، بيروت، ص ص 227 – 228.

(2) مولاي بلحميسي، **مازونة مقصد الدارسين وقلعة الخليليين**، الاتحاد الوطني للزوايا الجزائرية، منشورات المجلس العلمي، 2005م، ص 5.

وهذا لا يعني أن الأوقاف لم تكن موجودة بهذه الأقاليم بقدر ما أن أغلب وثائقها ضاعت، وبصفة خاصة ما هو متعلق بمدينة مازونة التي كانت تمثل عاصمة لبايليك الغرب الجزائري[1] وقلعة من القلاع لحصار الأسبان في مستغانم، وهران، تنس، وتموشنت لمدة أكثر من قرن ونصف قرن من الزمن، إذ كانت شبيهة بمركز عسكري كبير ومقر لقيادة الجيش الانكشاري فشؤون الحرب كانت تدار من أبوابها، هذه الظروف وغيرها نعتقد أنها كانت أسبابا من جملة من العوامل في ضياع هذه الوثائق النفيسة[2] التي لم يصلنا منها إلا النزر القليل الذي لا يفي بالغرض المطلوب.

الوقف الخيري (العام) : متعدد ومتنوع ونجد :

أ –الأحباس الدينية : متمثلة بصفة خاصة في :

– تحبيس المساجد :

إن أول المبادرات الخالدة التي أقبل عليها سكان مازونة بما فيهم الأتراك وبأريحية نادرة هي بناء المساجد والتي اشترك فيها أيضا أهل الريف والمدينة، إذ كان المسجد يمثل الرابطة بينهم إلى جانب أنه كان من المؤسسات الثقافية الهامة بمازونة، فهو ملتقى العباد ومجمع الأعيان ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية.

---

(1) أ. و. ج، **سجلات البايلك**، س 167، ع 7.

(2) بن الصديق محمد، **الأبواب المؤذونة من بلاد مغراوة ومازونة**، وزارة الثقافة، وهران، 2009، ص 110.

وبناء المساجد بمازونة هو أول ما وقف سكانها، وهو ما يفسره لنا كثرة المساجد بها والتي سنحاول اعتمادا على ما توفر لدينا من وثائق أن نعطي صورة مقبولة للأملاك والعقارات الموقوفة على هذه المساجد من أجل استمرارها في أداء رسالتها الدينية والثقافية، ونخص الحديث كنموذجا لدراستنا على مسجد سيدي عزوز أو سيدي عيسى كما يسمى باعتبار أنه من المساجد العتيقة بمازونة.

-مسجد سيدي عزوز أو سيدي عيسى أنموذجا :

يقع بحي بوماتع بمازونة القديمة، بني عام 1727 هـ/ 1100 م من طرف عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين[1]، وهو أول مسجد أقيمت فيه صلاة الجمعة، وكان يضم طلبة من داخل وخارج مازونة يحفظون القرآن الكريم ويتعلمون أصول الدين والفقه، وبصفة خاصة رسالة أبي زيد القيرواني[2]، وكانوا على المذهب الحنفي[3].

---

(1) هو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن على بن مروان، أبو محمد الكومي نسبته إلى مضر بن نزار، ولد بمدينة ندرومة قرب تلمسان التي كانت تابعة لدولة المرابطين وفيها نشأ وتعلم. وكان والده صانع خزف. كان الخليفة المؤسس لدولة الموحدين وحكمها من سنة 1147م وحتى 1163م. وطبق ما أخذه من سلفه من فقه ظاهري وفكر أشعري، فكان أول من وحّد كامل الساحل المتوسطي من مصر إلى المحيط الأطلسي فحكمها دولة واحدة هي والأندلس وجعلها تحت عقيدة واحدة وتحت حكومة واحدة. عبد المؤمن بن علي ـ موحد بلاد المغرب.

(2) هي رسالة في الفقه، للشيخ الإمام الفقيه أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني الملقب بمالك الصغير (تـ 386 هـ)، الرسالة هي من أشهر وأنفس ذخائر التراث المالكي، بل المصدر الثالث في المذهب بعد الموطأ والمدونة. حوت بين دفتيها أربعة آلاف مسألة.

(3) فتيحة العفاني وحمودي يمينة، **الحياة الفكرية لمدينة مازونة خلال القرن 19 و20**، مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس في التاريخ، المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2005 / 2006م، ص 48.

هذا المسجد كان من أغنى المساجد في مازونة وأوفرها موردا ومداخيل وأكثرها تنظيما وتسيرا، إذ كان يعين له نظار يقومون بتصريف شؤونه، فيؤدون رواتب الأئمة والمؤذنين والمنظفين والمشرفين على إنارة المستحمات.

وقد منح للسيد أحمد بن خذة الكتروسي الشريف الحسني مفتي مازونة وإمام الجامعين حق النظر على الأملاك المحبسة مع الإعفاء من المستلزمات.

هذه الامتيازات مع آل الكتروسي تواصلت سنين طويلة، ففي عهد الباشا محمد باقطاش داي سنة 1119 هـ / 1708 م صدر قرار لصالحهم لكل من السيد بالعباس والسيد أحمد بن عبد الله والسيد المهدي والسيد عبد الرحمن ذرية الولي الصالح السيد علي الكتروسي، هذا القرار يثبت ما أصدره من قلدوا الحكم قبلهم من الحكام فيما يتعلق بحماية هؤلاء وإعفائهم مما يجب على غيرهم[1].

وقد كان هؤلاء النظار هم من يتصرفون في مداخيل المؤسسات المحبوسة أو الموقوفة والتي كانوا يوظفونها في دفع رواتب الأئمة وقراء الأحزاب والمؤذن وشراء الزرابي والفراش، بعد دفع ثمن الترميمات وشراء الزيت للمصابيح وكان القاضي هو الذي يشرف على إدارة ومراقبة هذه المصاريف وكاتب أيضا إلى عشرة (10) أشخاص من أحسن سكان المدينة[2].

---

(1) بلحميسي، المرجع السابق، ص 66.

(2) فتيحة الواليش، **الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف مولاي بلحميسي، جامعة الجزائر، 1993 – 1994 م، ص 173.

هذا المسجد كانت تعقد به حلقة علمية متميزة وبصفة خاصة حلقة الفقيه أبا طالب محمد بن علي المازوني[1] إلى جانب تدريسه لطلبته الفقه، مختصر خليل، وشرحي الخرشي والزرقاني، كما كان يدرسهم الرقائق ورواية الحديث وحفظ السند.

وقد تعجب أبو راس الناصري[2] من تلاميذته ومن شعبيته وحب الناس له وإقبالهم عليه ولكن مع ذلك في كفاءة تلاميذه وفي طريقة تدريسه.

-أوقاف المساجد :

احتفظت مازونة بلوائح تحتوي على وقفيات متعددة وهبات متنوعة نستعرض بعضها مفصلا فيما يلي دون اللجوء إلى التمييز بين ماهو حبس وما هو هبة أو صدقة ما دامت ترمي إلى تحقيق هدف واحد :

-توقيف الأتراك العثمانيين لأملاكهم سواء كانوا حكاما أو جندا أو

---

(1) هو محمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمان بن أحمد المعروف بابن الشارف المازوني، ولد بمازونة في أواخر القرن 11 هـ أو بداية القرن 12 هـ الموافق للقرن...، ساهم في محاربة الأسبان حيث قام رفقة ابنه الوحيد هني على رأس حوالي 200 طالب وعمره يقارب الثمانون سنة بالانتقال إلى وهران لمحاربتهم.كما يعد من الفقهاء والعلماء النابغين بمازونة ومن الذين كان لهم اطلاع على العلوم الفقهية والكلامية اشتهر بنزعته الصوفية. بوجلال قدور، **العلم والعلماء في بايلك الغرب 1711 – 1830 م معسكر ومازونة نموذجا**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2008 – 2009 م، ص 223.

(2) هو محمد بن عبد أحمد بن عبد القادر الراشدي، الجليلي المعسكري الجزائري، مؤرخ من العلماء بالحديث ورجاله، له نحو خمسون كتاب. خير الدين الزركلي، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستغربين والمستشرقين**، ج 6، ط 5، دار العلم للملايين، بيروت، آيار (مايو) 1980م، ص18.

كراغلة[1]، إذ حبسوا ثرواتهم على المشاريع الدينية احتراما وتقديرا منهم للعلماء ومحاولة التقرب منهم معتمدين فيها على منطق التكافل والتضامن الإسلامي.وهو دليل منهم على محاولتهم لخلق إطار للتواصل مع الأهالي عن طريق السلطة الروحية[2].ولنا في بناء الباي محمد الكبير[3] للعالم محمد علي أبو طالب المازوني ولطلبته بعد الفتح الثاني لوهران سنة 1207 هـ / 1792 م لمدرسة فقهية أكبر دليل في هذا المجال، والذي لم يقتصر على مازونة فحسب بل شملت إصلاحات هذا الباي كامل مدارس الغرب الجزائري خدمة للعلم وتنشيطا للحياة الثقافية[4].

-مقهى بالبلدة كان يقدم لطلبة مازونة الشاي والفول السوداني كل أربعاء بعد الزوال وهم في استراحة من تعب وإرهاق الدروس.

---

(1) هم الفئة المولودة من أمهات جزائريات وأباء أتراك فكاثر عددهم بمرور الزمن، أصبحوا يشكلون خطر على طائفة الأتراك.يمينة درياس، **السكة الجزائرية في العهد العثماني**، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، ط . 1، الجزائر، ص 27.

(2) بلحميسي، مازونة مقصد الدارسين...، ص126.

(3) هو محمد بن عثمان بن إبراهيم الكردي (الملقب بمحمد الكبير بعد فتح وهران) باي معسكر وذلك سنة 1194هـ- 1780م. حارب الأسبان المحتلين لوهران إلى أن أخرجهم منها وجعلها مقره في 1207هـ- 1792م، وبقي على رأس بايلك الغرب إلى 1214هـ1799-م. أبدى اهتماما كبيرا بالتعليم وبذل جهودا من أجل النهوض به. ابن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تح المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973م، ص ص68-70. أحمد توفيق المدني، **محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده**، م . و. ك، 1986، ص ص134-135.

(4) المصدر نفسه، ص 60.

-حبس الباي مصطفى بوشلاغم[1] [2].

-أوقاف البساتين والأراضي والحمامات والمحلات التجارية والمخابز، إضافة إلى المخازن والمحلات الحرفية[3].

-وقف لأملاك السيد أحمد زروق بن علج وولده بقرية مازونة.

-وقف لجميع أملاك الحاج جلول بن الحاج بقرية مازونة.

-وقف لجميع أملاك أحمد بن حاج عبد القادر مصطفى بمازونة.

-وقف بحيرة سيدي هني بن محمد؟؟؟[4].

-وقف بحيرة العربي بلكباشي الموجودة بمازونة.

-وقف الحاج محمد فضل المازوني لأراضيه من أملاكه الخارجية[5].

-وقف الحاج بن الشيخ المبارك بوعبد الله لعقاره ومحله ببلاد مازونة[6]

---

(1) هو يوسف المصراتي مصطفى الملقب ببوشلاغم، تربى في قصر الداي بكداش خوجة داي الايالة في تلك الفترة وكان يكن محبة كبيرة لبوشلاغم، فانتقاه بايا لبايلك الغرب الذي عرف عهدا جديدا مع مجيء بوشلاغم سنة 1700 م. حيث قام سنة 1701 م بنقل مقر البايلك من مازونة إلى معسكر وذلك لكونها مقرا يتوسط البايلك بين مازونة وتلمسان. يحي بوعزيز، **مدن تاريخية – وهران** –، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1985 م ، ص 22.

(2) أ . و.ج، **سجلات البايلك**، س 167، ع 80 – 85، رقم القديم 82.

(3) أ . و.ج، **سجلات البايلك**، س 328، ع 217 – 245، رقم قديم 233. أ . و.ج، **سجلات المحاكم الشرعية**، ع 108 – 109. الوثيقة 30 – 47.

(4) كلمة غير مفهومة تعذر علينا قراءتها.

(5) أ . و.ج، **سجلات المحاكم الشرعية**، س 216، ع، 28 – ب، الوثيقة 45.

(6) أ . و.ج، **سجلات البايلك**، س 80، 81، 82، ع رقم 17.

-وقف محمد الصديق على الحاج مصطفى جميع بلاده.

-وقف علي بن موسى بلكاشي بن حمو.

-وقف أملاك نجمة بنت جودار بمازونة[1].

-وقف الزوجة بمازونة على ولدها أحمد جميع ممتلكاتها[2].

وبإمكاننا أن نستمر في توسيع هذه النظرة بشواهد أخرى، إلا أن فما سقناه زيادة كفاية لتبيان العناية العظمى التي أولاها المازونيون للمساجد والدعم الكثيف الذي حظيا به من لدن المحسنين الذين كانت أريحيتهم ترتفع وتعلوا كلما تعلق الأمر بأعمال البر والإحسان، ولم تكن هذه العناية خاصة بهم وإنما كانت معروفة لدى كل سكان الجزائر عامة والشاهد الباقي – في غياب الوثائق – هو ما يعرفه الكثير من أوقاف مساجد مازونة التي لا تزال تقاوم عاديات الزمن إلى أيامنا هذه.

ومن خلال ذكرنا لهذه المجموعة من الأوقاف نلاحظ أن معظم عقود التحبيس لم يشر فيها الواقفون إلى الجهة المحبس عليها، ونعتقد أن هذه الأوقاف هي أوقافا عامة والهدف منها خدمة الصالح العام، وبالتالي تتكفل مؤسسة الأوقاف بتوزيع مداخيله على الجهات المحتاجة[3].

---

(1) أ. و.ج، **سجلات البايلك**، س 80 – 81 – 82، ع 17.

(2) أ. و.ج، **سجلات المحاكم الشرعية**، س 216، ع، 28 – ب، الوثيقة 45.

(3) رابح كنتور، **الوقف وآثاره دراسة تاريخية للوقف في منطقة البليدة 1791 – 1873 م)**، مجلة المؤرخ، العدد 3 – 4، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1 نوفمبر، جامعة الجزائر، 2005 م، ص 333.

كما نستنتج مما سبق أيضا من خلال ذكرنا لأوقاف المساجد أن الوقف لم يقتصر على الرجال فحسب بل حتى النساء كانت لهم مساهمة فيه سواء المرأة الجزائرية أو المرأة التركية، حيث اتضح لنا من خلال وثائق الأرشيف أن أوقاف النساء كانت متنوعة من أحواش وبحاير وديار، وقد حبست لجهات مختلفة، وبصفة خاصة حبست للمساجد المحلية بمازونة أو على جهات أخرى ليستفيد منها عامة الناس المحتاجين أو المعوزين والفقراء.

وربما يعود اهتمام المرأة وخاصة في نهاية الحكم العثماني بالأوقاف نظرا للظروف الاقتصادية الصعبة التي عرفها المجتمع الجزائري آنذاك لذلك التجأت النساء إلى تحبيس بعض أملاكهن على الأبناء والأحفاد خوفا من نكبات الدهر التي يخفيها المستقبل[1].

وفي هذا نجد مثلا لوقف أملاك نجمة بنت جودار بمازونة[2]، ووقف الزوجة بمازونة على ولدها أحمد جميع ممتلكاتها[3].

هذا الاهتمام للمرأة بالأوقاف يبين لنا المكانة المحترمة التي كانت تحظى بها داخل المجتمع في شتى الميادين، إذ كانت تملك العقارات والأراضي الموروثة مما أتاح لها حرية التصرف فيها، وهذا ما سمح لها بخدمة المجتمع من جهة وخدمة دينها من جهة ثانية.[4] وهو دليل أيضا على وعي المرأة

(1) المرجع نفسه، ص 334.

(2) أ. و.ج، **سجلات البايلك**، ع 17، س 80 – 81 – 82.

(3) أ. و.ج، **سجلات المحاكم الشرعية**، س 216، ع، 28 – ب، الوثيقة 45.

(4) كنتور، المرجع السابق، ص 341.

بأهمية الوقف لفائدة العامة ودليل على تمتعها بوعي ومستوى ثقافي ولو كان أدنى كما أن هذا كان تقرب من الله[1].

-الوقف على الزوايا :

عرفت مازونة بزواياها والتي كانت ذات شهرة واسعة ولا يخفى على أحد الدور الذي تقوم به الزوايا الديني والثقافي والاجتماعي لا يُحْسَن بالباحث أن يتغافل عنه إطلاقا.

كانت الزاوية بمازونة أيضا قلعة من قلاع بث العلوم وتوعية العقول وتربية النفوس، كما كانت تشكل رباطات نقط أمامية ضد الأعداء كما يظهر على الخصوص في التعليم فلقد كانت بالإضافة إلى وظيفتها الدينية معاهد لتعليم الشباب وتنوير العامة[2].

هذه الزوايا كانت لها أوقافا تتمثل في الأراضي الزراعية والعقارات، والتي انتشرت في جميع أنحاء منطقة مازونة، وبسببها ظفرت مازونة باسم مدينة العلماء[3].ومن هذه الزوايا نجد :

-زاوية سيد بللوش في أولاد سلامة على مرتفعات الظهرة بالقرب من دوار العفانية، وشهدت هذه الزاوية بتخريج الكثير من الطلبة، حفظة القرآن الكريم الذين كان يبلغ عددهم أحيانا 150 طالب، كما شوهد لشيخها رحمه الله بالتقوى والصلاح والدعوة المباركة.

(1) سعيدوني، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر...، ص 192.

(2) سعد الله، المرجع السابق، ص 78.

(3) فون مالتسان، المصدر السابق، ص 240.

-زاوية سيدي غلام الله وهي واقعة على جهة الشمال بقرية حمري في وسط جبال الظهرة على الجهة المطلة لحوض الشلف، ولقد شهد لهذه الزاوية بتخريج عدد من الطلبة عملت على تدريس القرءان وكانت تحوي أكثر من 120 طالب يدرس بها، وهي مشهورة عند أهل المنطقة في الظهرة وحوض الشلف ومناطق عكرمة والمحال[1].

وهاتين الزاويتين كانتا تتكفلا بإطعام هؤلاء الطلبة، وقد كان للمتخرجين من زوايا مازونة ضلع في شهرة هذه الزوايا المرموقة، فما إن التحقوا بأوطانهم حتى رحب بهم وسطهم فهذا فتح كُتابا قرآنيا وذاك انضم إلى زاوية من الزوايا فعلم ما أعد له من تدريس الفقه، وآخر اعتنق الوظيف وخاصة المحاكم الشرعية والإمامة[2].

أما عن أوقاف هذه الزوايا فقد تميزت مازونة عن غيرها من مدن الجزائر من حيث التحصيل الوقفي والتي كان سكانها سببا فيها، وتمثلت في :

-الموارد الاقتصادية للزاوية في دخل الأوقاف والأحباس، إضافة إلى الصدقات التي كان يقدمها المحسنون وكذلك الزكاة والهدايا[3].ومن المؤسف ألا يبقى من وقفيات هذه الزوايا ما يقدمه الباحث للتدليل والاستشهاد.

---

(1) لعفاني، المرجع السابق، ص 50.

(2) بلحميسي، مقصد الدارسين...، ص 5.

(3) عمارة عمورة، **الجزائر بوابة التاريخ (ما قبل التاريخ إلى 1962م)**، ج 2، دار المعرفة، الجزائر، 2009م، ص 141.

ب-الأحباس الثقافية : متعددة ومتنوعة منها :

-حبس المكتبات :

من الصعب في دراستنا هذه أن نفصل بين المراكز الثقافية والدينية لأن المساجد والزوايا كانت تؤدي وظيفة مزدوجة بل وظائف متعددة، وحتى الخزانات الملحقة بها كانت تهدف بالأساس إلى نشر المعرفة الدينية وتقديمها على غيرها من المعارف، أما في مازونة وعلى ضوء ما هو مسجل في الوثائق فقد اشتهرت هي الأخرى بمكتباتها على غرار حواضر بايليك الغرب التي اشتهرت هي الأخرى بمكتباتها كتلمسان ومعسكر، إذ تضمنت مخطوطات ومؤلفات بها مكتبات أوقفها الباي محمد الكبير إذ جلب الكتب وحبس الأوقاف على الطلبة[1]، ومن بين الكتب التي أوقفها الباي نجد صحيح مسلم على مدرسة مازونة سنة 1212 هـ / 1798 م.

وغالبا ما كانت هذه المكتبات بجوار المسجد أوالمدرسة[2]، وبصفة خاصة المكتبات العامة، والعلاقة بين المكتبة والمسجد يرجع إلى كون أن الثقافة خلال العهد العثماني كانت دينية أكثر منها أدبية أو علمية[3].

كما أن وقف الكتب كان يتم بنفس الطريقة التي تتم بها الأوقاف الأخرى، فالواقف عادة ينص على أن الكتاب موقف في سبيل الله على طلبة الجامع أو الزاوية أو المدرسة التي يوجه فيها، كما ينص على منع إخراج

(1) بلحميسي، مازونة مقصد الدارسين...، ص 62.

(2) سعد الله، المرجع السابق، ص ص 296، 298.

(3) بلحميسي، مقصد الدارسين...، ص 64.

الكتب من الشرعية ختمه الذي يحمل تاريخ الوقف وخطه الشخصي[1].

هذه المكتبات التي عرفت بمازونة جعلت من طالبها يتمتع بمكانة لا يتطرق إليه الشك في أي مكان حل به[2]، هذا التميز الذي تميزت به مكتبة مازونة جعل زوارها من الفقهاء والأدباء والعلماء والرحالين زيارتها ضرورة علمية لا مفر منها البته، ومن أشهر العلماء الذين سعدوا بزيارتها الفقيه المغربي محمد الميسوم، الشيخ الكتاني، الشيخ بلغيث والشيخ بسودة المغربي وغيرهم كثيرون[3].

ومن العناوين التي كانت موجودة بالخزانة نجد :

-كتاب المختصر للشيخ خليل.

-كتاب الرقائق.

-كتاب الرسالة لأبي زيد القيرواني.

-كتاب صحيح مسلم.

-كتاب شرح الزرقاني[4] لمختصر خليل.

-كتاب شرح الخرشي لمختصر خليل. وغيرها من كتب أخرى.

وقد اضطلعت مكتبة مازونة بدور قيادي في توجيه الثقافة الدينية، **هذه المكانة المتميزة التي حظيت بها ينبغي أن يترتب عنها التعجيل بانجاز دراسة**

---

(1) سعد الله، المرجع السابق، ص 298.

(2) فون مالتسان، المصدر السابق، ص 240.

(3) مولاي بلحميسي، **دور مازونة في الحركة العلمية والثقافية من منتصف القرن 15 إلى منتصف القرن الحالي**، 1976، ص ص 6 – 14.

(4) عبد الباقي الزرقاني (1020 – 1099 هـ)، فقيه مصري مشارك في بعض العلوم.

تكشف صورتها الحقيقية وما اختمر في رفوفها وباحاتها من تجارب قرون من الإنتاج والعطاء.

ج-الأوقاف الاجتماعية :

لم يكتف المحسنون بالوقف على الخدمات الدينية والثقافية ولكنهم أولوا عناية للجانب الاجتماعي أيضا، من خلال الإنفاق على الفقراء والمغتربين من أوقاف المساجد، والدور الذي قامت به الزوايا وهذه في حد ذاتها خدمة اجتماعية عظيمة.

وحسب الوثائق المتاحة يكون للعالم والشيخ أبو طالب المازوني دور كبير في هذا المجال، وفي مجالات أخرى كمساهماته في إرساء قواعد السلطة العثمانية وتثبيت الأمن والاستقرار في البلاد، بل وحتى دوره العلمي والزعامة الروحية التي أكسبته مكانة كبيرة حظي بها عند عامة السكان وأيضا عند حكام زمانه[1].

نفس الدور والمكانة حظي بها أحمد بن خذة الكتروسي والذي كان له بالغ الأثر في نهضة المجتمع وتيسير الحياة ونشر العلم وخدمة السنة، وقد سار أحفاده وذريته على نهجه في خدمة العلم من إطعام[2] للطلبة والمغتربين وإيوائهم.

-أما بالنسبة للوقف الأهلي (الخاص) :

فقد عمل به كثيرا سكان مازونة لارتباطه الوثيق بأعرافهم وتقاليدهم،

(1) بلحميسي، المرجع السابق، ص 126.

(2) الواليش، المرجع السابق، ص 173.

ولنُذَكِرْ أن الوقف الأهلي هو : ما يوقفه الواقف على ذريته من الذكور والإناث أو على أشخاص معينين حتى إذا انقرضوا عن آخرهم آل إلى جهة يعينها ليصبح وقفا خيريا.

وسنركز في دراستنا هذه على ثلاثة من أركان الوقف هي : الواقف، الموقوف عليه والأملاك الموقوفة، وذلك قصد الكشف وإعطاء صورة عن الوقف المازوني وخصوصياته ومشاكله.

أ-أركان الوقف : للوقف أركان متمثلة في :

- الركن الأول : الواقف والموقوف عليه :

نجد أن الواقفين بمازونة اتفقوا على هدف واحد تكرر في عقودهم عبر ما يشبه العبارة التالية :

«قَصَدَ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ العَظِيم، وَرَجَاءَ ثَوَابِه»[1]، كما نجد أهداف أخرى مثل صلة الرحم.

ومن خلال اضطلاعنا لبعض الوثائق وعقود الوقف بمازونة لاحظنا أن بعض الواقفين يحرمون الإناث من حق الإرث عدا الاستغلال حتى الموت، وهو ما عبرت عنه إحدى الوقفيات بصراحة فقالت : «...حبسا... على أنفسهما ثم أولادهما الذكور والأنثى الخالية من الزوج...»[2]، ونعتقد أن هذه المسألة كانت متداولة لدى الكثير من القبائل وشائعة بمختلف

(1) أ . و.ج، **سجلات المحاكم الشرعية**، ع 34. الوثيقة 174. سعد الله، المرجع السابق، ص 233.

(2) المصدر نفسه.

بلاد المغرب الإسلامي وليست ظاهرة خاصة بأهل مازونة، في حين نجد أن بعض الواقفين لم يحرموا البنات من حق الإرث وهو ما صرحت به هذه الوثيقة «...وبعد وفاته يرجع ذلك على بنته عائشة تستغلها مدة حياتها، وبعدها على ذريتها وذرية ذريتها ما تناسلوا وامتدت فروعهم في الإسلام، يستغلون جميع ما ذكر طبقة بعد طبقة... »[1]، هذه الوثيقة نجدها تعاكس الوثيقة الأولى التي ذكرناها والتي خصصت البنت بالاستغلال لا غير فإن تزوجت أُخْرِجت من الانتفاع بالإرث.

وما لاحظناه كذلك من خلال عقود الوقف التي هي بحوزتنا هو شمولية التحبيس لمن سيولد بعد تاريخ إنشائه حتى لا يضطر إلى تحيينه كلما ولد له مولود جديد. ونجد في هذا مثالا في وقفية محمد المزوني التي نص فيها على أنه أوقف أولا على نفسه ثم على ابنته ثم على ذريتها[2]، أو وقفية الحاج وأخيه الصغير ولد الحاج قويدر بن الحاج التي نص فيها على أنهما أوقفا على أنفسهما ثم أولادهما الذكور والأنثى الخالية من الزوج وعقب عقبهما، فإن انقطع النسل المذكور يرجع لأولاد أخيهما[3].

كما نجد أن بعض الواقفين كانت لهم شروطا خاصة منفردة يختارونها بمحض إرادتهم حسب ما يرونه مفيدا لاستمرار الوقف وصلاحه، فمنهم من اشترط بعد انقراض نسله أن يؤول الوقف إلى جهات أخرى مختلفة مثل مكة والمدينة، مثل ما ورد في وقفية أولاد الحاج قويدر بن الحاج «...

(1) سعد الله، المرجع السابق، ص 233.

(2) المرجع نفسه، ص 233.

(3) أ. و.ج، **سجلات المحاكم الشرعية**، ع 34، الوثيقة 174.

فإن انقرض النسل المذكور يرجع حبسا على مكة والمدينة شرفهما الله...»[1] أو تحبيس عبد القادر سيد أحمد بلحميسي لجميع أملاكه في مازونة على الحرمين الشريفين[2].

أو يؤول الوقف إلى المساجد سواء داخل مازونة أو خارجها، ومنها وقفية محمد المازوني والتي خصت الجامع الأعظم بمدينة البليدة، حيث جاء فيها : «...وإن قرضوا (كذا) عن آخرهم يرجع ذلك على جامع (كذا) الأعظم من بلدة البليدة...»[3].

ونجد في تخصيص الوقف المازوني للمساجد والجوامع دليل على حرصهم على تقوية دور المسجد في بناء المجتمع وضمان استمرارية أداء رسالته النبيلة، إذ جعلوا المساجد أكثر من غيره آخر محطة يؤول إليها الوقف.

-الركن الثاني : الأملاك الموقوفة :

كما لم نعثر في وقفيات مازونة على عقود لبيع الوقف، كما وقفنا على أنواع الوقف بمازونة من خلال الوثائق التي بحوزتنا إذ نجدها متنوعة، ومنها :

أ-العقار : من أراض وبحيرة وماء وحمام ودار وبيت ومحلات، ولنا في هذا النوع الكثير من الأمثلة منها : وقفيات كل من :

-السيد أحمد زروق بن علج وولده أملاكه بقرية مازونة.

-الحاج جلول بن الحاج جميع ما يملكه محروسة بقرية مازونة.

-أحمد بن حاج عبد القادر مصطفى جميع ما يملكه من عقار بمازونة.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) أ. و.ج، **سجلات المحاكم الشرعية**، س 216، ع، 28 – ب، الوثيقة 45.

(3) سعد الله، المرجع السابق، ص 233.

-سيد هني بن محمد البحيرة.

-العربي بلكباشي جميع بحيرته بمازونة.

-الحاج محمد فضل المازوني الأراضي على ملكه الخارجي من بلاد المذكورة إلى بونحشوش[1].

-الحاج بن الشيخ المبارك بوعبد الله بتحبيس ما على ملكه من عقار ومحل ببلاد مازونة.

-محمد الصديق على الحاج مصطفى جميع بلاده في مازونة.[2]

-رسم تحبيس نصف دار بداخل بلد مازونة.[3]

-رسم تحبيس أرض بضواحي مازونة[4].

ب-الكتب : فقد وقف الباي محمد الكبير خزانة كتب كاملة وأهدى نسخة من صحيح مسلم إلى مدرسة مازونة التي أمر ببنائها إكراما لرئيس معهدها الشيخ بن علي أبو طالب وجزءا له ولطلبته على مشاركتهم في تحرير وهران[5].

---

(1) أ. و.ج، **سجلات المحاكم الشرعية**، س 216، ع، 28 -، الوثيقة 45.

(2) أ. و.ج، **سجلات البايلك**، س 80 - 81 - 82، ع رقم 17.

(3) أ. و.ج، **سجلات المحاكم الشرعية**، ع 34، الوثيقة 97 ف.

(4) أ. و.ج، **سجلات المحاكم الشرعية، ع** 34، الوثيقة 56 ف.

(5) محمد عليو، **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في منطقة معسكر خلال القرن 18 وبداية القرن 19 (1701 - 1830 م)**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، كلية الآداب واللغات الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ (جامعة معسكر)، 2008 / 2009م، ص 138. الشيخ المهدي البوعبدلي، **مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ**، مجلة الأصالة، العدد 11، الجزائر، نوفمبر / ديسمبر 1972م، ص 94.

ج-الدراهم : مثل الوقف الذي كان تحت ناظر باش بلكباشي والذي يخص دراهم بحيرة هني محمد بن هني وعلي؟؟؟[1] دراهم كراء بيت في دار الشريف بن البشير...وقدره تسع ريالات دراهم[2].

- ناظر الأوقاف بمازونة :

الولاية على الوقف حق مقرر شرعا على كل عين موقوفة، إذ لا بد للموقوف من متولٍ وناظر يدير شؤونه ويحفظ أعيانه[3].

يعين الناظر من طرف الحاكم، الباشا، الباي أو القاضي، ومن البايات الذين حكموا مازونة خلال فترة الدراسة نجد :

-حسن بن خير الدين باشا وهو أول بایاتها، وهو أول من حارب الأسبان حربا عنيفة بوهران وكاد يفتح المدينة لولا ما شغله عنها من أمور سياسية طارئة.

-الباي أبو خديجة.

-الباي مواق والذي مات مسموما بسم وضعته له زوجته.

-الباي السائح وبقي في الملك إحدى عشرة سنة.

-الباي ساعد، وتوفي بعده نحو عشرة بايات.

-الباي محمد عيسى وهو السادس عشر من بایاتها.

---

(1) كلمة غير واضحة تعذر علينا قراءتها.

(2) أ. و.ج، **سجلات البايلك**، س 358، ع 35.

(3) محمد بن عبد العزيز بنعبد الله، الوقف في الفكر الإسلامي، ج 1، ص 294.

-الباي شعبان زناقي الذي استشهد في جهاد الأسبان بوهران[1].

لم يكن للناظر مرتب محدد بل كان يتقاضى مبالغ رمزية كما كان يأخذ من المداخيل التي يشرف عليها المبالغ اللازمة لمصاريفه، أو من الواقف نفسه[2].

يشترط في الناظر الإسلام والعقل والبلوغ والأمانة والكفاءة، ولا يُعزل الناظر إلا إذا ثبت ما يوجب عزله من تقصير أو تفريط أو تلاعب أو ما أشبه، وإلى جانب الناظر أو الوكيل على المؤسسات الخيرية كانت تساعده جماعة من الجباة والموثقين لجميع حقوق الانتفاع وتوزيعها وفقا للتراتيب القانونية، ويتقاضى هؤلاء العمال أجورا عن متاعبهم وأشغالهم[3].

ولا شك أن مازونة كغيرها من المراكز التي كثرت فيها الأوقاف عرفت نظام النظارة وهذا ما تؤكده لنا الوثائق التي بحوزتنا، إذ كانت المساجد في مازونة تدار من طرف ناظر توكل إليه جميع أنواع التصرفات كأداء أجور الأئمة والمؤذنين وقراء الأحزاب والمشرفين على إنارة المستحمات والمنظفين وغيرهم من مستخدمي المساجد، كما يقوم بشراء ما يلزمها من أفرشة وزرابي وزيت المصابيح، وقد يقوم بالإشراف على الكتاتيب القرآنية التابعة لها.

---

(1) مسلم بن عبد القادر الوهراني، **تاريخ بايات وهران المتأخر أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر**، تح رابح بونار، ش . و. ن . ت، الجزائر، 1974، ص 18.

(2) الواليش، المرجع السابق، ص 173.

(3) بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 239.

والناظر هو الذي يتولى حيازة الأوقاف وتنميتها وعمارتها، والقاضي هو الذي يشرف على إدارة ومراقبة هذه المصاريف ومن النظار في مازونة نجد كل من :

-أحمد بن خذة الكتروسي الشريف الحسني، ثم بعده ذريته لصالح كل من السيد بالعباس والسيد أحمد بن عبد الله والسيد المهدي والسيد عبد الرحمن والذين عينوا كنظار وفق قرار أصدره الباشا محمد باقطاش داي سنة 1119 هـ / 1708 م[4]، وبهذا تكون عائلة الكتروسي[5] النافذة في مازونة قد احتفظت لنفسها بهذا المنصب لسنوات عديدة وتوارثته بين أفراد عائلتها مما سمح لها بالتقرب من السلطة إذ كانت كلمتها مسموعة لدى الحاكم[6].

كما كان بمازونة وكلاء ونظار الحرمين الشريفين منهم باش بلكباشي 1174 هـ / 1760 – 1761 م[7].

ومما سبق ذكره نستنتج أن الوقف بمدينة مازونة خلال الفترة العثمانية :

-كان خيريا عاما وأهليا خاصا، قَصد به الواقفون وجه الله، إذ كانوا لا حصر لهم بجنس أو طبقة أو مذهب، فالكل شارك فيه خاصة الأثرياء

(4) الواليش، المرجع السابق، ص 173.

(5) نبلاء مازونيون أحاطتهم الأرستقراطية العثمانية بكثير من الدعم والسند السياسي والمالي (تولى نسلهم السلطات الدينية، إدارة حبوس، أوقاف ومساجد المدينة إبان القرنيين 17 م و18 م)، كانت لهم صداقة طيبة مع باشا الجزائر عبد الله أبو العباس أحمد سنة 1680 م والداي محمد بقداش سنة 1710 م. بن الصديق، المرجع السابق، ص 129.

(6) عمورة، المرجع السابق، ص 137.

(7) ناصر الدين سعيدوني، **دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية (الفترة الحديثة)**، ط 1، د . غ . إ، بيروت، 2001 م، ص 217.

ومتوسطي الحال أو من الموظفين السامين في البايلك، إذ عملوا على دعمه وتقويته خدمة لأغراضه المتعددة والمتنوعة والتي شملت ميادين مختلفة (دينية، ثقافية واجتماعية...).

– أن الوقف بمازونة كانت تسيره النظارة التي كانت تمثل مؤسسة دينية قائمة بذاتها.

–أن أنواع الوقف بمدينة مازونة كانت متنوعة من عقار ودراهم وكتب...

–أن بعض الواقفين بمازونة أخرجوا الإناث من حق الإرث عدا الاستغلال حتى الموت.

الفهـــرس

- كلمة معالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف..... 5
د. بوعبد الله غلام الله

- كلمة السيد والي ولاية غليزان 9
أ. عبد القادر قاضي

- أعلام من قلعة بني راشد..... 15
أ. امحمد لقدي

- دور أبـي عبد الله المغوفـل في بعث الفكر الروحي في ربوع حوض الـــشـلف..... 33
د. حاج علي عبد القادر

- الشيخ مولاي العربي بن عطية الدرقاوي ومواقفه من المقاومة الوطنية من خلال كتابه «الاستمدادات الربانية»..... 59
د. محمد خاين

- الإمام أبو الخيرات مصطفى بن عبد الله بن مؤمن المالكي الرمّاصي القلعي الراشدي المعسكري الجزائري 81
د.محند أويدير مشنان

- التعريف بتراث الشيخ مصطفى بن عبد الله بن مؤمن الرماصي (ت 1136هـ/ 1724م) 93
د. حمدادو بن عمر

- قراءة إبتدائية في مرثية الشيخ مصطفى الرّماصي لأستاذه عمرو التراري (القرن 18) 119
د. محمد بشير بويجرة

- المقاوم الصوفي سيدي لزرق بلحاج زعيم ثورية 1864 / قراءة شاملة في كتاب سيدي لزرق بلحاج للكاتب محمد مفلاح 147
د. خليفي سعيد

- إطلالة عن الوقف بمازونة خلال الفترة العثمانية 155
أ.موساوي مجدوب./ أ. بن كرفة فوزية